الشيخ محمد عبده

(١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ — ١٩٠٥ م)

يعتمد نبوغ النابغ على عنصرين أساسيين : استمداده الفطرى — أو بعبارة أخرى طبائعه الموروثة — و بيئته التى عاش فيها ، كالشجرة الطيبة إنما تنبت نباتاً حسناً إذا حَسُنَت بذرتها ، ووجدت من التربة والهواء والماء ما يصلح لها ، فإن كانت البذرة سيئة فلا أمل فى شجرة ممتازة ، وكذلك إن حَسُنت البذرة وساء الغذاء .

وقوانين الوراثة فى الإنسان فى منتهى التعقّد : ماذا يرث من أبيه ؟ وماذا يرث من أمه ؟ وماذا يرث من آبائه الأقربين ؟ وماذا يرث من آبائه الأبعدين ؟ كل هذا لا يزال غامضاً مع عناية علماء الوراثة بالبحث والتقصّى .

على كل حال ورث « محمد عبده » صفات نشأ عليها ، وساعدت بيئته على نموها ، أهمها : الذكاء ، والثقة بالنفس والاعتداد بها ، ويتبع ذلك حب التفوّق والعطف .

من أين نَبعَت هذه الصفات ؟ من تركمانية أبيه كما يقال ، أو من عربية والدته إذ يقال إنها من بنى عَدِىّ ؟ ولكن ما هذا ولا ذاك بالسبب الكافى ، ففى كل من التركمان والعرب الذكى والغبى ، والعزيز والذليل . ولا نستطيع أن نتثبّت من موضع الوراثة حتى نكون على علم تام بآبائه وأمهاته فرداً فرداً ، وأنّى لنا هذا ؟ فليس لنا إذاً إلا أن نقول : إنه هكذا خُلق .

ثم كم من الفلاحين الفقراء فى الحقول ، وصغار الصُّنّاع فى المصانع ، مَن ورث من الصفات ما ورث الشيخ محمد عبده بل خيراً مما ورث ، ولكن لم تسعفهم البيئة

وقضت عليهم، وعاشوا وماتوا لم يشعر بهم أحد . ولو وَجدوا من الظروف ماوجد الشيخ محمد عبده وأمثاله لظهر نبوغهم وعلا اسمهم وآمن الناس بتفوقهم ، والناس كالكنوز المدفونة ، أحياناً يُقضَى عليها بالدفن الأبدىّ ، وأحياناً يُعثرعليها فتكون مصدر ثراء ، وفى عصر الشيخ محمد عبده إلى عصرنا لم تسعفنا نظم التربية وحالة البلاد الاجتماعية لنستكشف الأحجار الكريمة ، بل هى فى أغلب الأحيان تعمل على دفنها فى الرمال

لاتعجبَنْ من هالك كيف ثوَى بل فاعجَبنْ من سالم كيفَ نجا

هذا هو محمد عبده ينشأ فى قرية من قرى الريف كما ينشأ ابن كل فلاح فى ذلك العصر ، فإذا كان لأبيه بعض اليُسْرِ و بعض الوجاهة و بعض الدين علّم ابنه فى الكتّاب ، ثم بعث به إلى الأزهر أو إلى معهد دينىّ ، وكذلك فعل أبوه فأرسله إلى الجامع الأحمدىّ بطنطا لقربه من بلده ، وليجوّد القرآن بعد أن حفظه ، ثم ليتعلم العلم . فأما تجويد القرآن فأمر ميسور ، يسمّع ما تيسر فيأخذه الشيخ بضبط مخارج الحروف ومقاييس المَدّ والغُنَّة وَالإدغام وما إلى ذلك. وأما العلوم التى يدرسها فطرقها فى منتهى العُقْم — على المبتدئ أن يقرأ على شيخ كتاباً فى الفقه وكتاباً فى النحو ، وأمر الفقه محتمل ، فهو يبدأ يعلّمه فى دقة كيف يتوضأ وكيف يصلّى ، وهى أمور مارسها فى حياته العملية ، فمن السهل التدقيق فيها ما دام الأساس معروفاً . أما النحو فهو الطامّة الكبرى ، فهو لا يعلّم كما نعلمه نحن اليوم ، فنبدأ بأن الكلمة اسم وفعل وحرف، ونأخذ فى مميزات كل منها ؛ إنما كان يعلّم كما فى كتاب « الكفراوى على الأجرومية » وأول درس فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الباء حرف جر واسم مجرور بالباء وعلامة جره كسرة ظاهرة فى آخره ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أؤلف ، وأؤلف

فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم ، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا . هذا إن جعلت الباء أصلية ، وإن جعلتها زائدة فلا تحتاج إلى متعلق به ، وتقول فى الإعراب حينئذ : الباء حرف جر زائد ، واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد ، والخبر محذوف تقديره اسم الله مبدوء به » إلخ .

باسم الله ما شاء الله ! هذا أول درس لمن لم يعرف فى النحو شيئاً ، فلو أن متكلما تكلم بالسريانية لكان أهون ، وكيف يستسيغ هـذا وهو لم يسمع قبلُ إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا جرًّا ولم يفهم لها معنى ؟ ومَثَلُ هذا مَثَلٌ كنا نتضاحك منه وكان أعجوبة الأعاجيب ، وهو أن مدرساً فى مسجد سيدنا الحسين كان يعظ النساء ، اسمه الشيخ يوسف ، وكان يجلس ويتحلّق حوله عوامّ النساء للتبرك ، فيقرأ عليهن حديثاً من الأحاديث النبوية ويأخذ فى شرحه ، ولكنه ينسى أنه يدرس لنساء أميات جاهلات ، أو لا يستطيع ذوقه أن يدرك مقتضَى الحال ، وما يصح أن يقال وما لا يقال ، فيتساءل فى أثناء شرحه : «لم حُذف المسنَد إليه ؟» فيكون الكلام كتلاوة اللاتينية فى الكنائس لمن لم يعرف كلمة لاتينية ، أو خطبة الجمعة بالعربية لأتراك لم يعرفوا شيئاً من العربية !

كذلك كان تعليم النحو فى الأزهر والجامع الأحمدى للمبتدئين . فلو لُطمت البيداجوجيا لطمة مميتة لم تجد شرًّا من هذه اللطمة . ورحم الله الشيخ الكفراوى ، فلو علم ماذا يجنى على المتعلمين كتابه ما خطّ منه حرفاً .

كانت سنّ « محمد عبده » إذ ذاك خمسَ عشرةَ سنة ، واستمر على هذا عاماً ونصف عام يحاول أن يفهم فلا يفهم ، وكيف يفهم الوضع المقلوب على أنه وضع صحيح ؟ الجمهرة العظمى من المتعلمين على هذا النحو يَملّون ويسأمون وينقطعون عن الدراسة ، وبعضهم كانوا يختانون[1] أنفسهم فيزعمون فيما لا يفهمونَ أنهم

(١) يختانون : يخونون .

يفهمون . وتجلت في صاحبنا سجاياه التي ذكرنا في هذا الموقف ، فهو ذكيّ إذ فرّقَ بين ما يفهم وما لا يفهم ، وهو معتدّ بنفسه إذ ثار على الاستمرار على هذه الحال ، وأبى أن يرضى بهذا الهوان ، واختزن هذا الدرس في نفسه ، فتجلى فيما بعد في حمله عِبْءَ إصلاح الأزهر والعطف على أهله .

عوّل أن يتجه إلى الزراعة فيكون فلاحاً كسائر أهله ، وصمم على ألا يتعلم ، وصمم أبوه على أن يتعلم ، فلما أكرهه أبوه هَرَب إلى بلدة فيها بعض أقاربه ، وشاء القدر أن يلتقي بشيخ صوفي ، هو الشيخ درويش خضر خال أبيه ، فينقلب محمد عبده كأنه شخص آخر ، حتى كأن عصا سحرية مَسّته ؛ وهنا يتجلى فضل المصادفات في حياة العظماء ، فلولا هربُ محمد عبده إلى هذه البلدة وملاقاته لهذا الشيخ ، لكان محمد عبده المشهور هو محمد عبده المغمور الذي لا يعرفه أحد إلا بلده ، ولكان شأنه شأن أيّ فلاح في أي بلدة لا يسجَّل اسمه إلا في دفتر المواليد ودفتر الوفيَات .

وشخصية الشيخ درويش من الشخصيات اللطيفة التي تظهر في بعض البيئات المصرية على قلة ، وقد شاهدت منها في حياتي شخصين . هي شخصية متصوفة تمتازة بنور البصيرة أكثر مما تمتاز بسعة العلم ، تُعرف الدنيا وشئونها وتزهد في قيمتها عن علم لا عن غباء ، وخير عبادتها ذكر الله بالقلب لا باللسان ولا بالأوراد ، تعمل في الدنيا كما يعمل أهلها ولكن في رِفق وتسامح وميل إلى الخير . هي شخصية من أولئك الذين يرون الدنيا جِسراً إلى الآخرة ، فلا بد أن يُعبَرَ الجسر في أمان ، يألَمون لغفلة الناس وطغيان المادة عليهم وتورّطهم في المفاسد ؛ ويُشفِقون عليهم ويعملون ما أمكنهم لإنقاذهم في هوادة ؛ يَشِعُّ النور في قلوبهم على وجوههم ، فيكون منظرهم وتصرفهم وحركاتهم وسكناتهم منظراً جذاباً يستدعي الحبّ والإعجاب .

اتصل به محمد عبده فكان شخصاً آخر . ولم يكن ذلك عن عصا سحرية

ولا معجزة سماوية ، وإنما هي ظاهرة طبيعية . كان عند محمد عبده عقدة نفسية كوّنها شرح الكفراوى على الأجرومية ، فاعتقد أنه لا يفهم ولن يفهم ، فما فائدة الاستمرار ؟ وحلّ الشيخ درويش هذه العقدة بأن أعطاه كتاباً سهلا فى المواعظ والأخلاق ، وجمله يقرأ وأخذ الشيخ يشرح ، فإذا الطالب يفهم ، وإذا العقدة تحل ، ويعتقد محمد عبده أن فى الإمكان أن يفهم .

ودرس آخر علّمه له الشيخ ، وهو درس « القِيَم » فقد كان محمد عبده كعامّة الناس يرون مظاهر الحياة من مال وجاه وزينة وتفاخر وتكاثر فى أعلى القائمة ، وأن المسلم — بنطقه بالشهادتين — سيد الناس ، ولا بأسَ بما ارتكب ، فمصيره الجنة ؛ فجاء الشيخ ومَحا له هـذه القائمة وأثبت غيرها ، وجعل القائمة الجديدة مطلعها العمل الصالح بدلَ المال والجاه ، وأن اسم الإسلام لا يصح أن يكون مخبأ تُرتكب فيه الجرائم . فالإسلام عقيدة وعمل لا ألفاظ سَيَّالة تنتهى بمجرد النطق، وأن المسلمين محاسبون على أعمالهم كغيرهم ، وأن أكثر من يُسمَّوْنَ مسلمين لا يصح أن يدخلوا فى عداد المسلمين ، وأن التعاليم الفاسدة ليست من الإسلام فى شىء ، وأن أساس الإسلام وأساس العقيدة الصحيحة هو القرآن ، والقرآن وحده ، وأن خير عبادة هو تفهم معانيه .

— وكان الشيخ درويش متأثراً بتعاليم السنوسية التى تتفق مع الوهابية فى الدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام الأول فى بساطته الأولى وتنقيته من البِدَع ، وذلك على أثر رحلته إلى طَرَابُلُسِ الغربِ واجتماعه بأتباع السنوسى هناك .

— فى سبعة أيام تغير محمد عبده الذى يريد الزراعة والتفوق على الشبان فى ألعاب الفروسية إلى محمد عبده الذى يريد الصفاء الرُّوحى والتعلم ، ليستطيع فهم القرآن وإعداد نفسه ليهتدىَ ثم يَهْدِى .

فإلى الجامع الأحمدى إرضاء لوالدى وإرضاء لنفسى ، فقد اتفقت الإرادتان .

وبدأ يدرس النحو فإذا هو يفهم لأن العقدة النفسية قد زالت ، ولأنه بدأ يقرأ الكتاب الثانى فى النحو وهو شرح الشيخ خالد على الأجرومية ، وسوء الوضع جعل الكتاب الثانى أسهل من الأول ، ولعله قد رزق بشيخ خير من شيخه السابق استطاع أن يوضّح له ما غمض ويبينَ ما أبهم .

وإذا بالشيخ محمد عبده يلتف حوله بعض زملائه ليشرح لهم الدرس قبل بدء الأستاذ ، فتعود إليه ثقته بنفسه ، ويسير على الدَّرْب .

كانت هذه الأيام السبعة أيام حضانة تكوّن فيها كل ما اتجه إليه بعد من إصلاح . فاهتمامه بعد بتفسير القرآن ، وجعله أساساً لدعوته الإصلاحية ، وتنقيته للعقيدة الإسلامية مما أصابها من دخيل ، وتلون حياته بلون صوفى راق ، وزهادته فى المال ، وغيرته الشديدة على إصلاح المسلمين ، كلها غُرسَت فى هذه الأيام السبعة ، ثم نمت وازدهرت وتعدّلت وَفقاً للظروف والأحوال .

***

تحول محمد عبده من الجامع الأحمدى إلى الجامع الأزهر ، لأن الأزهر هو المثل الأعلى للتعليم فى المعاهد الدينية .

والتعليم فى الأزهر إذ ذاك — وكما رأيناه إلى عهد قريب — يُلقى عبء الطالب كله على نفسه من غير أن يحمل أحد أىّ عبء عنه ، فما عليه إلا أن يسجل اسمه فى دفاتر الأزهر ثم يفعل ما يشاء ، إلى أن يتقدم لامتحان العالمية ، فهو الذى يختار مدرّسه ويختار علومه ويحضر أو لا يحضر ، ويجدّ أو يلعب ، ويفهم أو لا يفهم . كل هذا متروك إلى نفسه ، وهو أسلوب يفيد الخاصّة ويضر العامة .

يأتى الطالب من بلده فيسكن فى حجرة فى حىّ الأزهر ، وقد يشركه فى الحجرة طالب أو أكثر ، وفى الحجرة كل أدواته وأدواتهم ، حصير مفروش على الأرض ، وصندوق فيه بعض الملابس وبعض الزاد ، و(مرتبة) ولحاف يفرشهما ليلا

ويطويهما صبحاً ، و « حَلّة » يطبخ فيها بنفسه من حين لآخر فى الحجرة نفسها — وقد حدّث محمد عبده عن نفسه أنه غضب على كتاب فطبخ به عَدَساً — ومن حين لآخر يأتيه الزاد من البلد ، بعض الخبز و بعض الجبن وشىء من السمن ، فإن كان أهله فى شىء من الثروة فشىء من الفطير وشىء من الدجاج المذبوح ؛ وهذه هى دنياه .

والطالب المجدّ يصحو عند أذان الفجر فيصلى الصبح ويذهب إلى الأزهر ليحضر درس الفقه و يستمر الدرس إلى الضحى ، والشيخ يقرأ فى الكتاب وهو متربع على كرسىّ حوله الطلبة ، فإن كان عدد الطلبة قليلا استغنى عن الكرسى وجلس على فَرْوَة ؛ أما الطلبة فيتربعون على الحصير ، ومن كان منهم من أبناء الأعيان جلس كذلك على فروة ، والشيخ يقرر الجملة و يشرحها والطلبة يسمعون و يعترضون والشيخ يجيب ، وأحياناً يحتدّ الشيخ فيضرب أو يلعن ، ولا ينتقل الشيخ من جملة إلى جملة إلا بعد أن يقتلها بحثاً ، وقد تضيع الساعتان أو الثلاث فى سطر إذا اقتضى الحال ، فإذا ختم الشيخ درسَ الفقه بقوله : « والله أعلم » انصرف الطلبة يبحثون عن « فَطورهم » فمن كان منهم له « جِراية » — وهى رغيفان إلى خمسة — تسلمها من رواقه وخرج إلى محيط الأزهر ، حيث دكاكين الفول المدمّس والطعمية فاشترى منها ما شاء ، و إن كان طالباً متقدماً بعث طالباً صغيراً يقوم عنه بهذا العمل ، و إن كان فقيراً باع رغيفين أو أكثر من الجراية ، ليشترى بثمنها إدَاما ، و إن كان مُترَفاً استعاض عن الفول بالجبن والزيتون والحلاوة الطحينية فى بعض الأيام ، و إذ ذاك ترى الأزهر كله مائدة للطعام ، حَلقاتٍ حلقاتٍ ، وعُدّ هذا فَطوراً وغَداء معاً .

فإذا انتهى الطلبة من هذا جلس المجِدّون يطالعون درسَ النحو القادم ، فإذا فرغوا منه كان الظهر قد أذّن فتقام الصلاة و يبدأ درس النحو على نحو

درس الفقه ، فيمتدّ ساعات وقد يصل إلى العصر .

وبعد استراحة الطالب بُعدَ درس الفقه القادم ، وينتهي بذلك يومه العلميّ فيعود إلى بيته ، وإن احتاج إلى ضوء فمصباح يشتعل بالجاز بواسطة فتيلة من غير زجاج ، ولا بأس بدُخانه . وإذا اشترك جماعة فى حجرة وكانوا فقراء تقاسموا ثمن الجاز ، كلٌّ عليه ليلة أو أسبوع ، وقد حدّث «الهلباوى» أنه تنازع مع زميله على ثمن الجاز لأنه لم يشأ أن يدفع نصيبه .

ويتدرّج الطالب فى الكتب ، كل سنة كتاب فى الفقه وكتاب فى النحو ، إلا إذا طال الكتاب فيقرأ فى أكثر من سنة ، ولكل كتاب — تقريباً — متن هو الأصل ، وشرح يشرح المتن ، وحاشية تشرح الشرح ، وقد يكون هناك تقرير يشرح الحاشية ، والشيخ يطالع كل هذا استعداداً لما يمطره الطلبةُ عليه من الأسئلة ، فيبدأ الشيخ بقراءة المتن ويشرحه بجميع ما كتب عليه مناقشاً مهاجماً مدافعاً حتى تنتهي المعركة بانتهاء الدرس .

وإذا انتهت كتب الفقه حل محلها كتب أصول الفقه ، وإذا انتهت كتب النحو حل محلها كتب البلاغة .

وعلى هامش هذه الأوقات قد يحضر الطالب المتقدم دروساً صباحية بعد صلاة الفجر مباشرة ، أو دروساً مسائية بعد المغرب فى علوم أخرى كالتفسير والحديث والمنطق .

وليس بالنادر أن نسمع صيحة تقوم فى الدرس أو قبله أو بعده لاختلاف طالبين على مكان فى الحلقة أو نحو ذلك ، فيتضاربان ، ويتعصب أهل الصعيد للصعيدى ، وأهل البحيرة للبحراوى ، فتكون معركة حامية يتدخل فيها جنود الأزهر المسمَّون بالمُشدِّين .

فإذا مررت بصَحن الأزهر رأيت حُصُراً مفروشة نُشر عليها خبز مما أرسله

أهل المجاورين[1] إليهم ليتجفّفَ فى الشمس خوف العفَن .

ورأيتَ ثياباً منشورة ومياهاً مصبوبة إلخ . وفى الدروس ترى مريضاً بجانب صحيح ، وقَذِراً بجانب نظيف ، ولم يفكر أحد فى إشراف طبيب .

وقلّ أن تسمع مدرّساً تعرّضَ فى درسه لمسألة خلقية ، أو حثَّ على فضيلة أو حذّر من رذيلة .

كل الكتب التى تدرس فى الأزهر من نتاج العصور المتأخرة ، تحدّرت من العصور الزاهية ، ولكن عدا الزمان عليها فأفقدها رُوحها فصارت شكلا . النحو كان يراد منه النطقُ الصحيح والكتابة الصحيحة وفهمُ كتبِ الأدب فهماً صحيحاً فصار مجرد تفهم لألفاظ المؤلفين فى النحو . وأصول الفقه كان يقصد منها التمرين على الاجتهاد فى التشريع فأصبحتْ ولا اجتهادَ ولا تشريع . والبلاغة كان يُقْصَد منها كيف يُكتب القول البليغ فصار المؤلفون فيها أعاجم لا يحسنون التعبير كالسعد التفتازانى ، حتى أباح لنفسه الشيخ أحمد الرفاعى أن يدرّس أكبر كتاب فى البلاغة وهو المطوّل ، ثم يعترف أنه لا يحسنُ أن يكتب رسالة ، ولو غير بليغة ، لأن هذا من عمل تلاميذ المدارس المدنيّة .

واشتهر من فطاحل العلماء فى هذا العصر : الشيخ أحمد الرفاعى هذا ، وأساس شهرته أنه يحسن فهم الكتب ويستطيع تحليل الجمل وإثارة الشبهات حولها حتى يعقّد السهل ويغمّض الواضح . والشيخ عليش ، وهو شيخ من أصل مغربىّ ، شهرته فى تدينه وعصبيته ورميه الناس بالكفر لأوهى سبب ، وضيق أفقه وشدّة غيرته على الدين بالمعنى الذى يفهمه . ولكن كان هناك آخرون هيأتهم الظروف لأن يتصلوا بالدنيا وحركة التعليم المدنية ، فاتسع أفقهم ، كالشيخ البسيونى إمام المعية ،

---

(١) المجاورون : من يساكنون الأماكن المقدسة ، ويعتكفون فى المساجد ، وقد غلبت هذه الصفة على طلاب الأزهر فى العهود الماضية .

وكان ظريفاً فى شكله وفى ملبسه وفى تأليفه ؛ والشيخ حسن الطويل ، وكان ذكياً حكيما له نظرات فى الحياة صائبة ، يقرأ الفلسفة فيُرْمَيَ بالزندقة .

هذا هو الأزهر الذى رآه محمد عبده . يقوم التعليم فيه على الفلسفة اللفظية ، ويعلم طالبه الدقة فى الفهم والقدرة على الجدل . وهذه محمدة ، ولكن مع الأسف لا تستخدم هذه الدقة ولا الجدل إلا فى الألفاظ ، وتجعل صاحبها غارقاً فى الاحتمالات بما يراه فى الحواشى والشروح من التأويلات ، فكل شىء يجوز حتى دخول الجمل فى البُندقة — على حد تعبير الشيخ محمد عبده نفسه — يتم الطالب الدراسة فيه فيخرج فاهماً لبضعة كتب ، أما الدنيا وشئونها فإنه يجهلها كل الجهل ، فلا جغرافية ولا تاريخ ولا طبيعة ولا كيمياء ولا رياضة ، فكل هذه علوم أهل الدنيا ، وما للآخرة والدنيا ! ومع هذا فالنزاع على الجراية كثير وعلى الوظائف الصغيرة أكثر ، كل شىء خارج عن المألوف كُفر أو حرام أو مكروه ؛ فتحويل « الميضأة » القَذِرة إلى حنفيات حرام ، وذهاب للبركة ! وقراءة كتب فى الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ، ولبس « الجزمة » بِدعة .

فإن تحركت نفس صالحة للإصلاح خُنقت دعوتها فى مهدها ورُميت بالزندقة .

ومثل هذه البيئة تنتج عقولا جامدة ونفوساً خامدة ، إلا أن يتداركها الله بمدد من الخارج . وقد ذكر الشيخ محمد عبده نفسه أنه حاول أن يغسل أثر هذه البيئة فنجح فى بعض وفشل فى بعض . فإن رأيت نابغة خرج منها فبرغمها لا بفضلها . ومن الأسف أن ولاة الأمور من أول الأمر، مع علمهم بنقص الأزهر وحاجته إلى الإصلاح — خوفاً من العلماء والرأى العام — تركوه وشأنه يأكل بعضه ، وأنشأوا بجانبه المدارس المدنية يشكّلونها كيفما يشاءون .

* * *

فى هذا الجو عاش صاحبنا نحو اثنى عشر عاماً ، من سنة ١٢٨٢ — ١٢٩٤ حيث نال شهادة العالمية من الأزهر .

وفى هـذا الجو المظلم كانت تلمع ثلاثة نجوم أضاءت جوانب نفسه : الشيخ درويش ، والشيخ حسن الطويل ، والسيد جمال الدين .

فالشيخ درويش كان يلقاه الشيخ محمد عبده فى بلده فى الإجازة من نصف شعبان إلى نصف شوال كل عام ، فيتمم له ما بدأه منذ لقّنه الدرس الأول فى التصوف وتنقية العقيدة ، و يعْرِض عليه الشيخ محمد عبده ما درسه فى العام وما فى نفسه من أزمات ، فيتلقى ملاحظات الشيخ و إرشاده ؛ وقد لقنه درسين جديدين هامين : الأول نَقْده الشيخ محمد عبده لعزلته وعدم اتصاله بالناس وقَصْر عنايته على تكميل نفسه من غير اتجاه إلى إصلاح من حوله ، ولم يكتف الشيخ درويش فى ذلك بالكلام النظرىّ ، بل حمله على أن يغشَى المجتمعات فى البلد معه ، و يتحدث إلى الناس و يعظهم و يذكرهم ، و يدعو محمد عبده للتحدث معهم كحديثه ونصحهم كنصحه ، وهو درس انتفع به محمد عبده ونفّذه طولَ حياته إلى نفَسه الأخير . فإن زاد السيد جمال الدين شيئاً فى هذا الدرس فهو تعليمه كيف يختار موضوعات الكلام فى الإصلاح . والدرس الثانى الذى علمه له الشيخ درويش هو هدمه للنظرية الأزهرية التى تقول إن هناك علوماً تعلّم وعلوماً لا تعلم ، فكسر الشيخ درويش هذه الحدود ، وقرر أن كل العلوم يجب أن تعلم و يجب أن يطلبها الطالب ما أمكن ، ولا يستثنى من ذلك شيئاً ، إلا ما يتخذ شكل العلم وليس بعلم كالسحر والشعوذة ، أما المنطق والفلسفة والرياضيات وما إلى ذلك فليست بحرام ، بل هى واجبة على طالب العلم . ومن أجل ذلك عاد الشيخ محمد عبده إلى الأزهر يطلبها فوجدها عند الشيخ حسن الطويل ، وهو شخصية غريبة ؛ ذكاء حادّ ، ومعرفة بالرياضيات حتى كان يَحُلّ لطلبة دار العلوم ما أشْكلَ عليهم من تمرينات

هندســية ، واتصال بكتب الفلسفة القديمة ، وعلمٌ بمصطلحاتها ، ومعرفة بالدنيا وبالسياسة ، وشجاعة فى الـكلام بما يعتقد ولو حُرم منصبَه فى دار العلوم ، وزُهد فى الدنيا حتى لا يهمه منها شىء ، يلبس قفطاناً من « البفتة » وجُبة من «البفتة» أيضاً ، ويقال له : إن علىّ مبارك باشا سيزور دار العلوم غداً فيعزم أن يلبَس كما يلبس كل يوم ، فيُنصح له بأن يتخذ شيئاً من الأناقة ، فيقول : إذاً أبعث بجبة من الصوف وقفطان من الحرير إلى دار العلوم ، أما إن أردتم « حسن الطويل » فهو هو فى ملبسه . ويُدعى إلى موائد الأغنياء للإفطار فى رمضان فيأكل من طبق الفول ويزهَد فيما عداه ، ويُطرد من دار العلوم لـكلامه فى السياسة ، فينفق عليه صاحب مُقهًى بلدىّ ، فإذا عاد إلى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه ليصرف على بيتيهما كما كان يفعل وهو مطرود . ويُدرّس فى الأزهر الفلسفة والمنطق فيحضر دروسه نخبة من الطلبة مثل محمد عبده ، فيُرْمي هو وتلاميذه بالزندقة .

ولـكن دروس الشيخ الطويل تفتح شهية الشيخ محمد عبده ولا تغذيه ، فيجد الغذاء الـكافى عند السيد جمال الدين وقت حضوره إلى مصر ، فيتصل به ويلازمه ، وتتفتح له آفاق كانت مغلقة ، ويحسّ أنه وجد طِلْبَتَه .

* * *

كان السيد جمال الدين الأفغانى شعلة ذكاء ، وقوة هائلة ، متحركة محرّكة ، لا يمسها ماسّ إلا شُحِن من كهربائه على قدر استعداده ، دائم التفـكير ، دائم القول لمن يفهم ومن لا يفهم ، دائم النقد ، دافع للحركة والثورة والهيجان فى المطالبة بالحقوق ، حيثما حل رأيتَ ناراً تشتعل وأفـكاراً تَهِيج ، ومطالب تُطلب ، وحكومة تضطرب — قد حدد غرضه فى الحياة ، ووهب نفسه للوصـول إليه ، وهو إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها ، وتبصرة شعوبها بحقوقها ، ورفع نِير

الأجنبيّ عنها ، وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها ، وربط هذه الدول كلها برباط واحد مع الخلافة فى الآستانة .

ووسيلته فى ذلك تنوير عقول الخاصة من أبناء كل دولة حتى يعرفوا مركزهم ، وإعدادهم لمهاجمة الغاصبين من الأجانب والمستبدين من الحكام ، ثم هؤلاء يعملون لتكوين الرأى العام بكتابة المقالات فى الجرائد والمجلات والخطب فى المحافل ، والأحاديث فى المجالس ؛ وكلما كانت المقالات والخطب أحرّ ناراً وأجهرَ بالرأى وأصرحَ فى الدعوة إلى العمل كانت أجودَ وأنسبَ . هذه خطته فى كل بلد يَحِلُّه .

اتصل به فى مصر محمد عبده ، وسعد زغلول ، وإبرهيم اللّقانى ، وإبرهيم الهلباوى . كما اتصل به فى مجالسه الخاصة محمود سامى البارودى ، وإبرهيم المويلحى ، وأديب إسحق وغيرهم . كان له درس علم فى بيته ، ودروس سياسة واجتماع فى مُقْهاه الذى يجلس فيه ، وحيث يكون زائراً أو مزوراً .

وكان أقربهم إلى نفسه محمد عبده ؛ قرأ فيه « السيد » الذكاء وحسن الاستعداد وطيب القلب والحماسة للإصلاح ، وقرأ محمد عبده فى أستاذه سعة العقل ، وصحة الإرشاد ، والسمو فى النفس ، ونبل الغرض ، وشيئاً جديداً لم يره فى الأزهر .

لم تكن الكتب التى قرأها عليه محمد عبده ذات قيمة فى نفسها ، فهى من جنس ما كان يقرؤه على الشيخ حسن الطويل ، ولكن العبرةَ ليست بالكتاب وإنما هى بشارح الكتاب ، والعالم الماهر يستطيع أن يصبّ كل تعاليمه أثناء كلامه على نملة أو نحلة ، وأىّ جملة فى نظره يستطيع أن ينفُذ منها إلى العالم الفسيح .

استفاد محمد عبده من السيد بصراً بالدنيا التى حجبها الأزهر ، وتحولا من تصوف خيالىّ إلى تصوف فلسفيّ عمليّ ، ورغبة صادقة فى العمل للأمة ، وشوقاً إلى الإصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى ، وميلا مُلِحّاً إلى إجادة قلمه حتى يتصل

بالرأى العام من طريق الكتابة فى الصحف .

وأحس الشيخان وحدة الغرض والانسجام فتلازما وتحابا ، يحب محمد عبده أستاذه حب إجلال، ويحب الأستاذ تلميذه الكبير حب رعاية وأمل فى استخلافه، ووثق الصلة بينهما اشتراكهما فى الإباء والسموّ والعظمة ، إذ يترفعان عن الناس فى غير كبر، و يستصغرانهم فى عطف من غير احتقار . يقول محمد عبده : « إن أبى وهبنى حياة يشاركنى فيها علىّ ومحروس (وهما أخوان له كانا مزارعين) والسيد جمال الدين وهبنى حياة أشارك فيها محمداً وإبرهيم وموسى وعيسى ، والأولياء والقديسين » .

نال الشيخ محمد عبده شهادة العالمية من الأزهر ، فلم يكن كغيره مثل ساقية « جُحا » ، تملأ من البحر وتصبّ فى البحر ، بل علّم فى الأزهر ، وعلّم فى دار العلوم ، ومدرسة الألسن ، واتصل بالحياة العامة .

* * *

لم يعلم فى الأزهر النحو والفقه كما كان يفعل غيره من المشايخ وخاصةً المبتدئين بالتدريس ، فالنحو والفقه — كما يدرسان فى الأزهر — من العلوم النقلية ، وهو يريد أن يربىّ العقل ، ويفهّم الكون ، ويهذبَ الخلق . كان يقرأ فى الأزهر أو ملحقاته درساً فى المنطق والفلسفة والتوحيد ، وكان يقرأ فى بيته لبعض الطلبة تهذيب الأخلاق لمسكويه ، واعجبْ له يقرأ لهم أيضاً « تاريخ المدنية فى أوربة وفرنسا » لمؤلفه الفرنسى « فرانسوا جيزو » الذى عربه « حنين نعمة الله خورى » وسماه « التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوربية » .

وعُيِّن مدرساً للتاريخ فى دار العلوم فلم يقرأ لهم ملخصاً من ابن الأثير والطبرى ، وإنما قرأ لهم مقدمة ابن خَلدون ، وألف لهم كتاباً فى « علم الاجتماع والعمران » فقِد ولم يُعثر عليه .

واتصل بالجرائد — وخاصةً الأهرامَ — يكتب فيها مقالات فى الإصلاح الخلقى والاجتماعى .

كانت مصر فى آخر عهد إسماعيل هائجة مائجة إذ وقعت فى الدَّين ، فمكن هذا أوربة من التدخل فى الشئون المصرية ، ومراقبة ماليتها . فأنشىء صندوق الدين والمراقبة الثنائية سنة ١٨٧٦ م = ١٢٩٣ هـ وتغلغلت سلطتها فى المصالح الحكومية باسم الدَّين . ومن الناحية الداخلية كان الوعى القومى ضعيفاً ، لا يرى الناس لهم رأياً يصح أن يُبْدوه ، وليس لهم أن ينقُدوا عمل الحاكم ، فما على الحاكم إلا أن يأمر وما على المحكوم إلا أن يطيع ؛ فكانت هذه الأمور كلها مَدْعَاةً لأولى الرأى فى الأمة أن ينهضوا بالصِّحَافة ويشيموها بين الرأى العام ويقووها ؛ وتعاون على إنهاضها الخديو إسماعيل والسيد جمال الدين الأفغانى ورياض باشا .

فأما الخديو إسماعيل فرأى من مصلحته ومصلحة الأمة أن تكون الجرائد حرة فى نقد التدخل الأوربى ؛ أما إذا نَقِد هو شخصياً فالعقوبة الشديدة ، كما حدث لصاحب جريدة الأهرام لما أشار إلى مال صُرِف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكما نُفِيَ يعقوب صَنُّوع صاحب جريدة « أبو نضارة » لانتقاده أعماله .

وأما رياض باشا فكان ذا رغبة إصلاحية فى تنظيم الشئون المالية وتهذيب العقول وتشجيع الآداب ، وكان مدركا الخطر الذى يهدد البلاد ، فلعل فى الجرائد وحريتها ونقدها وتنبيه الشعور القومى ما يدفع هذا الخطر ، ولهذا شجَّع السيدَ جمالَ الدين وحزبه على الكتابة .

وأما السيد جمال الدين فثائر على سوء الحال فى مصر وجمود الناس وبرودتهم إزاء ما يكتنفهم ، فهو يريد أن يشعلها ناراً ، ولا أصلحَ لذلك من الجرائد . ولعل دروسه فى الفلسفة لم تكن إلا ستاراً لبثّ روح الثورة وإعداد طائفة من الشبان يتصلون بالصِّحافة ويكتبون .

ربّى على هذا طائفة من الشباب الذين ذكرنا .

فبعد اتصال محمد عبده بالسيد بدأ يكتب فى الأهرام فى السنة الأولى من صدورها سنة ١٨٧٦ ، وكان مجاوراً ، قبل أن ينال شهادة العالمية ، فكتب مقالا فى « الكتابة والقلم » وآخر فى « المدبر الإنسانى والمدبر العقلى الروحانى » وثالثاً فى « العلوم العقلية والدعوة إلى العلوم العصرية » إلخ ، وهى مقالات تدل على تأثره بالكتب الفلسفية الشرقية التى درسها ، وعلى رغبته الخيرة فى الإصلاح ، وعلى ما يبشر بالخير منه ، أكثر مما تدل على أسلوب قوىّ و بلاغة ممتازة .

ثم اتصل بالصحافة اتصالا قويًّا بعد أن نال شهادة العالمية ، و بعد أن نزل الخديو إسماعيل عن عرشه ، وتولى توفيق ونفى أستاذه جمال الدين ، وتولى رياسة النظار رياض باشا فجدّ فى تنظيم شئون الدولة من مالية وأشغال ومعارف ، وكان له ميل قوى إلى تشجيع الحركة الأدبية ، فشجع بطرس البستانى على إخراج دائرة المعارف ، وكان واسطة فى أن يمنحه الخديو إسماعيل مِنحة مالية وعلمية ، وشجع أصحاب مجلة المقتطف على نشرها ، وشجع شبلى شميّل صاحب مجلة الشفاء ، ولما سمع بعزمه على السفر لدراسة الأساليب الحديثة لمرض السل أعانه إعانة مالية على ذلك .

واتجه — فيما اتجه — إلى إصلاح « الوقائع المصرية » واختار الشيخ محمد عبده لهذا الإصلاح ، فضم محمد عبده إليه سعد زغلول ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وإبرهيم الهلباوى ، والشيخ محمد خليل ، والسيد وفا . وكان من وسائل إصلاحهم إنشاء قسم فى الوقائع غير رسمىّ بجانب الأخبار الرسمية تحرّر فيه مقالات أدبية اجتماعية إصلاحية ، وكان الشيخ محمد عبده هو المحرر الأول .

مكث الشيخ محمد عبده فى هذا العمل نحو ثمانية عشر شهراً . وفى الحق أنه برهن فيها على شخصية قوية ، فجعل من هذا العمل العادىّ رقابة على المصالح

الحكومية ومنبراً للدعوة إلى الإصلاح ، فاستصدر قراراً بلائحة تجعل جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى ملزمة أن تكتب إلى إدارة المطبوعات بجميع ما لديها من الأعمال الهامة التي تنوى عملها ، والمحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها — وتبيح لإدارة المطبوعات حقّ النقد لأى عمل من الأعمال حتى وزارة الداخلية التي يتولاها رياض باشا والتي تُعَد إدارة المطبوعات تابعة لها ، وأن تسأل كل مصلحة عن حقيقة ما وجه إليها من نقد فى الجرائد العربية والإفرنجية . وعلى الجملة جعلها أداة إشراف على الحكومة وعلى ما ينشر فى الجرائد العربية من حيث لغتُها وموضوعُها ، وعلى الجرائد الأجنبية من حيث نقدها . وقد وافق هذا هَوىً فى نفس رياض ، لأنه يمكنه من ضبط الأمور والإشراف على الجرائد . وقد كتب الشيخ فى هذا العهد مقالات كثيرة أهمها فى نقد نظارة المعارف ، وكان من أثر ذلك إنشاء المجلس الأعلى لها واختياره عضواً فيه ؛ ونقد لبعض الأخلاق والعادات الاجتماعية والدينية ، وتوضيح لنظام الشورى وما يصلح منه فى مصر ، وأحياناً — تصريحاً أو تلميحاً — فى تأييد لوزارة رياض باشا ومدحها .

والواقع أن وزارة رياض باشا قَسَمت البلاد قسمين :

مؤيِّد ومعارِض ، والمعارض معارض بالحق وبالباطل .

كان رياض يريد الخير لمصر ولكن من طريق التدرّج ، ويعتقد أن المصريين فى حالة تدعو إلى الإشفاق والأخذ بيدهم فى هوادة ، وهو فى هذا قوىّ جبار ينفذ ما يريد فى عنف ، له لازمة وهى « هيه » إذا قالها رَعَبَ من حوله ، لا يعبأ إذا اقتنع بشىء من إصلاح أو بشخص من الأشخاص أن ينفذه ويؤيده مهما كانت النتائج . وإلى ذلك يعتقد فى الأجانب من إنجليز وفرنسيين القوة ويسالمهم ، ويرى الطريق الوحيد هو التفاهم معهم .

فتألبت عليه الجموع ؛ منهم من كرهه لصَلَفِه ، ومنهم من كرهه لعدله فى إبطال

السُّخْرة والضرب بالكرباج ، ومنهم من كرهه لسيرته مع الأجانب ، حتى سموه « رياضستون » على وزن « جلادستون » ، ومنهم الطَّموح الذى كرهه لرجعيته . وشعَر الناس بغضب الخديو توفيق عليه لأنه يعارضه فى بعض أغراضه وتصرفاته ، فشجعهم هذا على محاربته ، وتخصصت جرائد لتجريحه وسبّه ، مع أنه كان مؤيدها من قبل أو خالقها .

هنا بُذرت بِذْرة الثورة العرابية ، وفى هذه الظروف كان الشيخ محمد عبده على رأس الوقائع وإدارة المطبوعات ، فكان يهاجم لأنه من أتباع رياض ، وكان هو نفسه يشعر بالحرية التامة فى نقد الشئون الاجتماعية والعادات الدينية ، لكنه يشعر ببعض القيود فيما يمسّ المسائل السياسية ، إما اعترافاً بجميل رياض عليه وعلى أستاذه ، وإما نزولا على مقتضَيَات الوظيفة ، وإما اعتقاداً بمذهب رياض فى التدرج ، وإما كلها مجتمعة .

حتى كانت الثورة العرابية .

* * *

يكاد يكون فى كل جماعة نوعان من القادة : نوع طَمُوح يريد القفز إلى الأمام ولا يرضيه السير البطىء ، ولا التفكير الهادئ ، ونوع يرى الخير فى الهدوء والسير فى معالجة الأمور برفق ، والإيمان بقانون السبب والمسبب ، فإن أردت النتيجة فكوّن مقدماتها ؛ وهذا الميل إلى هذا أو ذاك يتبع امزاج الشخصىّ — أولا — والتربية والظروف — ثانياً — فمن الناس من خلق هادئ المزاج يُصغِى إلى حكم العقل ، ومنهم من خلق نارىّ المِزاج يُحْكَم بعواطفه ويحكّمها ؛ وهذان النوعان يسمّيان أسماء مختلفة باختلاف الأمم والأزمنة : أحرار ومحافظون — اشتراكيون وغير اشتراكيين — أحزاب اليمين وأحزاب اليسار إلخ . والمعنى واحد وإن تعددت الأسماء .

وكان فى مصر فى أول عهد الخديو توفيق بالطبيعة هذان المزاجان — أو هاتان النزعتان — كلاهما يتفق مع الآخر فى وصف سوء الحال : الفلاح بائس وشقىّ وجاهل ومظلوم ، ومصر كلها شقية بما جر عليها الدَّين من تدخل الأجنبىّ وخاصة الإنجليزَ والفرنسيين فى شئونها حتى تفاصيلها ، وشقية بأداتها الحكومية من انتشار الرِّشْوَة والمحسوبية وتفضيل العنصر الشركسىّ والتركىّ على المصرىّ . وشقية بأن سواد الشعب ضعيفُ الوعى ، مستكين للظلم ، لا يرفع صوتاً من أى جَوْر يناله ، ولا يفهم أن له حقًّا يطالب به — كل الأطباء من الفريقين متفقون على تشخيص المرض ، فإذا هم أخذوا فى وصف العلاج اختلفوا .

فأما فريق المحافظين فيرون بَرنامَجَ العلاج — أولا — نشر التعليم الصحيح بين أفراد الشعب ، على أن يكون من أهم ما يشمله تفهيم الناس الحقوق والواجبات . ثانياً — استخدام الصَّحافة استخداماً قوّياً فى محاربة المفاسد وتنبيه الوعى القومىّ . ثالثاً — الاجتهاد فى أن يكون رئيس الحكومة حازماً عادلاً ينفذ الإصلاح المعتدل المنشود فى قوة . رابعاً — التدرج فى الحكم النيابى بالتوسع فى سلطة مجالس المديريات — مثلا — تبعاً للوعى القوميّ ، فإن رقى هذا الوعى بالتربية والتعليم نما المجلس النيابى تبعاً له حتى يصبح بعد سنوات والوعى القومى قوىّ ، والمجلس النيابى قوىّ ، ولا فائدة من مجلس نيابى يوضع وضعاً قوّياً ما لم تُسانده الأمة والرأى العام ؛ ولا يمكن ذلك الآن والأمة فى حالة قلّ أن نجد فيها معارضاً قوياً يجرُؤُ على نقد الحكومة . وكان من هذا الرأى محمد عبده ، وسعد زغلول ، ومن لفّ لفّهما ، وبهذا دَعَوْا فيما كانوا يحررون فى الوقائع المصرية ، وفيما كانوا يقولون ويخطبون . وكانوا يَرَوْن فى رياض باشا — وهو على رأس الحكومة — المحقق لهذا الغرض ، فهو عدل نزيه حازم ميّال للخير محبّ للإصلاح قابل للنصيحة لو جاءت ممن يثق به — على الرغم من عيوبه الأخرى .

أما الطائفة الأخرى فكانت نواتها أفراداً تعلموا فى أوربة لا من طريق البعثة ، وعاشوا فيها زمناً طويلا ، ورأوا نظمها ولمسوا حرية أفرادها ، وأعجبوا بحرية سياستها فى نقد الحكومة وأعمالها ، وعادوا إلى مصر فتقزّزوا من حالها ونظامها ، فدعوا فى مجالسهم وجرائدهم إلى إصلاح وثاب . أو أفراداً تعلموا على الأنماط الأوربية ، وتثقفوا ثقافتها ، وهؤلاء يريدون حريةً شخصيةً للفرد فى أعماله وعقائده ، ولا يسمحون للحكومة أن تتدخّل فيها ما لم يقع العمل تحت سلطة القانون ؛ وحرية سياسية تامة فى نقد الحكومة وأعمالها ، وأهم ما فى هذا الباب إنشاء مجلس نيابيّ مستقل على النظام الإنجليزىّ أو الفرنسىّ ، له الإشراف العام على الحكومة ، وهى مسئولة أمامه لا أمام الخديو . وكان على هذا الرأى بعض المصريين ، وبعض الجالية السورية .

وتجادل الفريقان فى هذه المبادئ أيما جدال ؛ وهذا ما يفسر كل ما صدر من الشيخ محمد عبده فى مقالاته فى الوقائع وغيرها ، فهو يُعنَى فيها بأمر التربية والتعليم ، ويلح فى إصلاحها وينال من ذلك بعض غرضه ، وينقد العادات السيئة ، ويدعو إلى التخلص منها ، ويدعو إلى احترام القوانين وإطاعتها . ومن ناحية أخرى يكتب مقالا عنوانه « خطأ العقلاء » يهاجم فيه الفريق الآخر ، فى دعوته إلى الحرية الشخصية ، والحرية الاجتماعية ، ففى الحرية الشخصية يرى أنها ضارّة ما لم تدعم بالتربية ، وإلا سقط الناس فى الخمر والقِمار وهتك الحُرُمَاتِ ، وجاهروا بالإلحاد . بل نراه يفضل « الكَبْسة » على الحرية الشخصية من غير تربية ، والكبسة عادةٌ كانت جارية ، وهى أن يهجُم رجال الضبط على بعض الأماكن المشبوهة ليلا ليقبِضوا على من يُظَن فيهم الاجتماع لخمر أو فجور ؛ فيقول: «فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الأنفس والأموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل ، إلى زمنٍ تتقدم فيه التربية ، فيكون لكل شخص

زاجر من نفسه فترتفع الكبسة بذاتها » . وكذلك رأيه فى الحرية السياسية ، يرى أن يبدأ بإصلاح المجالس البلدية وتعويد الأهالى السير عليها قبل مجلس نيابىّ منقول نظامه عن أوربة . ثم يستمر متمسكا بهذا الرأى حين يقول : « إنما ينهض بالشرق مستبدّ عادل » ردّاً على من يرى أنه إنما ينهض بالشرق حكم نيابىّ شامل ، ويرى فى هذا المقال أن هذا المستبدّ العادل يستطيع أن يفعل فى خمسةَ عشرَ عاماً الأعاجيبَ ، وينقُل الأمة خطوةً واسعةً إلى الأمام .

ويرى الفريق الآخر أن الحرية الشخصية حق طبيعىّ للإنسان لا يصحّ أن يُهدر لأىّ سبب ، ومَثّل من يقول بالقضاء عليها لسوء استعمالها كمن يريد إبطال السكك الحديدية لأن القطار يقتل بعض الأفراد ، والعفّة التى تحتاج إلى حارس أقل قيمةً من أن يحرُسَها حارس .

وأما الحرية السياسية فلا بد منها لمعالجة ما أصاب البلاد من الاستبداد ، والمستبدّ العادل إذا ظَفِرت به أمة أعقبه فى الأعمّ الأغلب مستبدون ظَلَمة ، فلا يصلح إلا أن يكون علاجاً مؤقتاً . والحكم النيابىّ هو الأمل الوحيد فى الإصلاح ، فإن كان الناس لم يتعوّدوه فليتعوّدوه ، ولا بأس من مُضِىّ قليل من الوقت حتى يألفَه الناس ويسيروا عليه .

وكان من ألسنة هذه الدعوة شابّ سورىّ اسمه أديب إسحق . كان ذكيا كاتباً شاعراً خطيباً مثقفاً ثقافة واسعة ، مطلعاً على شئون العالم الأوربىّ وتاريخه ، يجيد العربية والفرنسية والتركية مطّلعاً على آدابها ، وأسلوبه فى الكتابة أقوى من أسلوب الشيخ محمد عبده وصحبه يوم كانوا يحرّرون فى الوقائع ، تتلمذ أيضاً للسيد جمال الدين فى مصر ، وتشرّب من روحه ، وكان متأثراً تأثراً كبيراً بالعقلية الفرنسية ، على حين كان الشيخ محمد عبده متأثراً بالعقلية الأزهرية والشرقية ،

وحتى فى سيرته الشخصية كان مسرفاً على نفسه ، على حين كان الشيخ محمد عبده متديناً وَرِعاً .

كان لأديب إسحق هذا جريدتان يحرّر فيهما ، وهما : « مصر » و « التجارة » ، وكان شعلة ملتهبة يعيش عيشةً عنيفة على حساب أعصابه ، فكان يهاجم الاستبداد ويطالب بالحكم النيابيّ فى أكمل صوره . يقول : لقد عرف الناس الآن شرور الاستبداد ، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الأمر شُورى عند جميع الدول المتمدنة إلا الروسيا ، وذلك إن صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة . إن ثورة فرنسا برزت إلى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقليد فضعضعتها ، ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ، فآنست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلابيب الرقّ والعبودية ، فتصدّى لها أعوان الرق وأنصار العبودية ، وما ألَوا [1] فى قتالها جهداً ، فلقيتْهم وهى ترى الموت فى الحرية حياة ، والحياةَ فى الرقّ موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ، ورسخت فى عالم الوجود قدمها ، وأدهشت الدنيا بشدة حَوْلها » إلخ . ويهاجم رياض باشا وصحبه فى مذهبهم ، ويَنعىَ عليهم اعتقادهم فى ضعف المدارك المصرية ويقول : « زرت رياض باشا على عهد الوزارة الأجنبية فى ديوان الداخلية ، فقابلته خارجاً من الغرفة فجلسنا على مقعد الباب ، فقال : كيف ترون الحال ؟ قلت : رأى الوزير أوسع . قال : وما الذى يبلغكم من أخبار الريف ؟ قلت : إن الناس أمّلوا كثيراً ولم ينالوا شيئاً ، فأوشكوا أن يعودوا إلى اليأس بعد الرجاء ، والوزير يعلم أن النَّكْسَة شر من الداء . فقال بازدراء : فليرجعوا إلى حالة الخَسْف ويعانوا عذاب الظلم . قلت : إنهم لا يرومون ذلك ، ولكن يرومون نيل الحرية وتأييد الكلمة الوطنية . فقال متهكما : ألا يرجون مجلسَ النواب ؟ قلت . لا بِدْع

(١) : ما ألو ، أى ماقصروا .

أن يُطلب الشيء من معدنه . فقال : أيّ معدن فى مثل هـذا المجلس ؟ وكيف يرجى له البقاء ؛ وليس فى مصر من يعلم شيئاً من الأحوال السياسية الدولية ليصلح أن يكون نائباً ؟ قلت : إن صح هـذا الرأى فلا يقضى بحرمان البلاد من نعمة الشّورى ، فإن النواب المصريين يستطيعون النظر فى أمورهم الداخلية وأحوالهم الزراعية ، وما يترتب عليه نفع البلاد ليستجلبوه ، وما ينشأ عنه الضرر ليجتنبوه ، وهم بذلك أحق من غيرهم ، فإن صاحب البيت بالذى فيه أدرى . فهمهم بكلام لا يفُهم ، وانصرفتُ » .

وكان يكثر الـكلام فى الوطن والوطنية ، والحقوق والواجبات ، والدستور ، وغير ذلك من الموضوعات الملونة بالثقافة الفرنسية ، مع الاجتهاد فى وضع مصطلحات عربية موفقة .

وكان زعيم أديب إسحق وصحبه هو شريف باشا ؛ إذ كان شريف — كما صوره الشيخ محمد عبده — « من أقوى عوامل النهضة التى انقلبت إلى فتنة . كان من القائلين بأن النفوذ الأجنبيّ قد بلغ حدّاً لم يكن يمكن أن يبلغه لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للأجانب فى كل ما يطلبون . وكان يُقْنِع جلساءه أنه إذا حَكَمَ أوقف الأجانب عند حدودهم وسار بالوطن شوطاً عظيما فى مجده » وكانت سياسته إنشاء مجلس النواب فى صورة قوية « وأخذ الناس يقولون : لا صلاحَ فى الاستبداد بالرأى و إن خَلَصت النيات ، فرأيُ واحدٍ عرضة للخطأ و إن تحققت نزاهته من الغرض » .

وكان هؤلاء ينظرون إلى محمد عبده وصحبه وعلى رأسهم رياض على أنهم حزب رجعيّ . ويظهر أنه لم يكن رجعيًا ، و إنما كان حزباً مصلحاً محافظاً يرى التؤدَة ولا يرى الطَّفرة .

وقد أغلق رياض جريدتى « أديب إسحق » ونفاه ، ولما ألف شريف مجلسَ

النواب استدعاه وعيّنه رئيساً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف ، ثم سكرتيراً فى مجلس النواب ، ثم مات شاباً فى التاسعة والعشرين من عمره .

ومع الأسف لم يكن مصدر الثورة هذا الحزب الذى يطالب بالمجلس النيابىّ والحرية الشخصية ؛ ولو كان لاتخذت الثورة وضعاً آخر ، ولنظِرَ إليها على أنها ثورة من الأمة لتحقيق العدل . إنما بدأت الثورة من الحزب العسكرىّ وعلى رأسه عرابى ، يطالبون بتحقيق المساواة بين الضباط المصريين والضباط الشركسيين ، ولكن اتسعت الثورة رويداً رويداً ، وزادت مطالب عرابى باشا شيئاً فشيئاً ؛ فتزعم — أيضاً — الوطنيين وطُلّاب المجلس النيابىّ ، وانضم إليه سلطان باشا أولَ الأمر — وكان من الناقمين على رياض والمطالبين بالحكومة النيابية — وبانضمامه انضم كثير من الأعيان وعلماء الأزهر ، ثم انضم الشعب بأجمعه تَهِيجه الجرائد الثائرة ، وعلى رأسها عبد الله نديم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الأعيان وبمطالب الأهالى ، وطلب العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابىّ وبإلغاء الاستبداد — وكل ذلك تنفذه القوة العسكرية .

لو حكّمنا منطق الواقع فيما سيحدث لقلنا إن الشيخ محمد عبده لا ينغمس فى هذه الثورة العرابية مطلقاً ، لا فى أولها ولا فى آخرها ؛ لأنه لا يؤمن بالحكم النيابىّ السريع ، ولأنه يشايع رياض باشا ، ولأنه لا يرضى أن تكون الثورة بيد العسكريين ، ولأنه يكره عرابى باشا ، ويعتقد أنه شهم فى الكلام ضعيف فى الحرب ، يحتكم إلى المنامات أكثر مما يحتكم إلى العقل ، أليقُ به أن يكون واعظاً للعوامّ من أن يكون زعيم أمة — وإن كان طيّب القلب حسن النية — ولكننا نجده بإقراره مناهضاً للثورة فى أولها ، مشايعاً لها فى آخرها . وليس بصحيح ما يقال من أنه لما تطور أمر الثورة من مطالبة بالمساواة العسكرية إلى مطالبة بالحكم النيابى انضم إليها ، فإنه لم يكن يؤمن بالحكم النيابىّ العاجل كما قدمنا . إنما الأمر فى

نظرى أن مسائل الحياة لا تجرى على المنطق دائماً وخاصة أيامَ الثورات . وحوادثنا القريبة فى ثوراتنا الحديثة أكبر شاهد على ذلك ؛ فكم انتقل رأى الكبراء من ناحية إلى ناحية تحت تأثير تيَّار الرأى العام . فالشيخ محمد عبده رأى كل الأمة فى ناحية الثورة ، واشترك فيها المسلمون والأقباط واليهود ، ولم يشُذَّ عنها إلا أحد رجلين : رجل لا فى العِير ولا فى النفِير(١) ، وهو لا بد أن يكون فى العِير وفى النفير . ورجل انضم إلى الخديو توفيق يشايعه ، وتوفيق باشا فى نظر الشيخ محمد عبده لا يصحّ أن يكون أحد بجانبه بعد أن استعان بالدول الأجنبية فى إخماد الثورة ، ومالأ الأجانب على قومه . أضف إلى ذلك أن الأمر آخراً لم يصبح أمر حزب أمام حزب ، بل أمر مصر أمام الإنجليز ، فلا بد أن يكون مع قومه وينشد :

وما أنا إلا من غَزِيّةَ إن غوَتْ غَوَيْتُ وإن ترْشُد غَزِيّةُ أرشُدِ

فإذا نحن تساءلنا : ما أثر الشيخ محمد عبده فى هذه الفترة ؟

قلنا إن له أثراً كبيراً اعترف به حزبه وخصومه والذين حققوا معه وحاكموه

فقد نبَّه الأفكار إلى الإصلاح فيما كتب فى الصحف وما تحدَّث فى المجالس وما اتصل بالهيئات المختلفة ، فكان مصدراً كبيراً لشعور الناس بسوء الحال والحاجة إلى الإصلاح مهما اختلف هو وغيره فى طريق العلاج . وكان يعدّه أصحابه وأعداؤه من أقوى العقليات الموجودة إن لم يكن أقواها ، ومن أقوى الشخصيات التى تعمل للخير حسبما تعتقد من غير أنانيّة . فمن يوم أن عيِّن فى تحرير الوقائع وهو جمّ النشاط يحرر ويراقب ، ويتصل بالمصالح الحكومية ، ويغشى المجالس : مجلس رياض ، وعلىّ مبارك ، وسلطان ، وعرابى ، وطُلْبة ، والسراى . وفى كل هذه المجالس يقول ويجادل ، ويقنع ويقتنع ، ويثير الحماسة للعمل . وكان للثورة العرابية أسباب ، فكان هو سبباً من أسبابها ، ولكنه سبب بعيد ، لا كعبد الله

(١) العير : القافلة تحمل المئونة . والنفير : القوم ينفرون للقتال .

نديم سبب قريب ، ثم انقلب الشيخ محمد عبده سبباً قريباً يوم حميت النار ؛ فلئن اتهم بأنه من زعماء الثورة وحوكم عليها ، لقد كان ذلك حقًّا .

* * *

هذا هو الشيخ محمد عبده فى بيروت بعد أن قُبض عليه لاشتراكه فى الثورة العرابية وأُودع السجن ثلاثة أشهر للتحقيق ، لاقى فيها الأمرّين[1] من اضطهاد وإهانة وشماتة أعداء وتنكّر أصدقاء وتضييق بالأسئلة وإحراج فى الاستجواب ، ثم حُكم عليه بالنفى ثلاثَ سنوات .

يقيم فى بيروت نحو عام — سنة ١٨٨٣ — وسنه إذ ذاك نحو أربع وثلاثين سنة .

ثم لا يلبث أن يدعوَه أستاذه السيد جمال الدين ليوافيَه إلى باريس فيلبى الدعوة ، ويشتركان فى إخراج مجلة « العُروَة الوُثْقَى »[2]. للسيد التوجيه والروح ورسم الخطط وإبداء الأفكار ، وللشيخ التحرير والصياغة وتفصيل المعانى .

إدارة الجريدة فى غرفة صغيرة فى سطح منزل فى باريس ، هى مكان التحرير وملتقى الأتباع ومجمع الأفكار ، وهذه الغرفة الصغيرة أثارت الأفكار وأخافت الإنجليز والفرَنسيين ، وأقلقت راحتهم ، أكثر مما أخافتهم عمارات ضخمة وإدارات فخمة ، بل أكثر مما أخافتهم الجنود والبنود ، فالعِبْرة بالسكان لا بالمكان .

وهذا الشيخ محمد عبده يتأثر بباريس ، بما يطلع على شئونها ومعيشة أهلها . فيطيل شعر رأسه ويلبس الطربوش ويحتفظ بالجُبَّة والقفطان ، ولكن لم يكن له من الفراغ ما يتعلم فيه الفرنسية ، فمهمته تستغرق كلّ وقته ، فهو وأستاذه وقليل

---

(١) الأمران : الشر والأمر العظيم .

(٢) انظر أغراض المجلة فى ترجمة « جمال الدين » .

من الأتباع يحملون عِبء التفكير والتحرير والتصدير ، وتمهيد السبل السرية والعقلية لوصول المجلة إلى أنحاء العالم الإسلامى ، وتأسيس فروع مركزية لمساعدتها وانتشارها وتحقيق أغراضها .

والقارئ للمقالات التى كان يحررها الشيخ محمد عبده فى الوقائع المصرية ومقالات « العُرْوَة الْوُثْقى » يرى الفرق الكبير بينهما فى الاتجاه والغرض والأسلوب والحرارة .

كانت مقالاته فى « الوقائع » تقصد إلى الإصلاح الاجتماعىّ فى مصر وحدها بأسلوب هادئ ، يغلب عليه العقل والتحفظ والتدرّج ، ومقالات العروة الوثقى تنظر إلى العالم الإسلامى كله على أنه وَحْدة ، فإن ذكرت مصر أو الهند فعلى سبيل المثال ، وكانت تقصد أولَ ما تقصد إلى مناهضة الاحتلال الأجنبى بجميع أشكاله ، وتهدِف إلى رفع نِيرِه عن العالم الإسلامى كله عن طريق ثورة الشعوب ، وبث روح العزة القومية بواسطة العقيدة الدينية الصحيحة ، وخلق الأمل فى النجاح مكان اليأس ، وتوثيق الصلات بين الشعوب الإسلامية كلها لتتعاون على دفع أذى الأجنبىّ عنها ، والتخلص من المستبدين الظالمين من أهلها ، وتأسيس الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية على أسس أصول الإسلام الأولى : من إعداد السلاح ومقابلة القوة بالقوة ، وطرح العقائد الدَّخِيلة التى تدعو إلى الاستسلام مثل رمى العبء كله على القضاء والقدر ، وإفهام الشعوب أن الإسلام فى شكله الصحيح لا يتنافى مع المدنية ، ولا يعوق التقدم والوصول إلى ما وصلت إليه الأمم الأخرى .

هذه المعانى القوية أكسبت أسلوبَ الشيخ محمد عبده قوة لا تجدها فى « الوقائع » . ثم إننا نلاحظ أن « الشيخ » متى اتصل بالأستاذ فنارىّ من ناره وثائر من ثورانه ، وعاطفى من حرارة وجدانه ؛ فإذا انفصل عنه عاد إلى حكم

الشيخ محمد عبده فى سويسرة واضعاً يديه على ابن وبنت لأستاذه السويسرى

الشيخ محمد عبده في لندن سنة ١٢٨١

العقل والمنطق وزالت ثورته ، وخفّت حِدّته .

٨٨ وحدث فى هذه الأثناء أن سافر الشيخ محمد عبده إلى « لندن » وكانت الثورة المهدية فى السودان ، والإنجليز لم يثبّتوا أقدامهم فى مصر ، ووعودهم بالجلاء تتتابع ، فلعل فى رجال الإنجليز من أعضاء البرلمان من يُصْغِى إلى صوت الإنسانية وحق البلاد فى الاستقلال ، فكان الشيخ محمد عبده — وقد عاد إلى عمامته — فى البرلمان الإنجليزى يحدّث أعضاءه ، ويحدّث رجال السياسة ، ورجال الصّحافة — وهو فى كل ذلك وطنىّ مصرىّ مخلص يطلب الجلاء والوفاء بالوعود ، ويوضح حقيقة الحال فى الثورة العرابية ودسائس الأوربيين فيها ، وكراهية الشعب للحكم الأجنبىّ ، وأنهم يفضلون استبداد الحكام من أهلها على الأجنبىّ من غيرها مهما كانت سِيرَته ، ويهدّد بأن المصريين سوف لا يدفعون الضرائب ، وسيجعلون حكم الأجانب مستحيلا ، سـواء أكانوا إنجليزاً أم فرنسيين ، ويقرر أن انتشار الأمية فى مصر لم يفقد أهلها الشعور الطبيعىّ برغبتها أن تحكم نفسها ، والإسلام الذى بين جوانحها يحرّم عليها الاستسلام لغيرها .

ولكن متى خضعت القوة للحق ، ومتى ضُحِّيت المصلحة القومية للإنسانية ، ومتى عفا الأسد عن فريسته ؟

لقد عاد الشيخ محمد عبده إلى باريس يائساً ، وزاد الأمرَ سـوءاً أن نجحت إنجلترا فى اضطهاد « العروة الوثقى » والتضييق عليها ، فاحتجبتْ بعد ظهور ثمانية عشر عدداً منها فى ثمانية أشهر ، وسافر السيد جمال الدين إلى فارس ، وعاد الشيخ محمد عبده إلى بيروت ، فإن كانت « العروة الوثقى » لم تخلق أشـجاراً كما كانا يؤملان ، فقد نثرت بذوراً تنتظر الجو الطبيعىّ والغذاء الصالح لتبدأ فى النمو ولتكون بعد أشجاراً وإن انتفع بها الأعقاب .

يسكن الشيخ محمد عبده بيروت فانقطع عنه مَدَد الثورة والهياج السياسىّ

الذى كان يمدّه به السيد جمال الدين ، وعاد إلى طبيعته من ميله إلى الإصلاح العقلىّ والدينىّ وتجنب السياسة ، وكانت الظروف حوله تدعو إلى ذلك ، فقد فَشلَت الثورة العرابية ، وأقفلت جريدة العروة الوثقى ، ولم تنجح مفاوضاته مع الإنجليز ، وهو الآن يقيم فى بيروت ، حيث الدولة العثمانية فى عهد السلطان عبد الحميد ، الذى يخنق الحرية ، ويملأ البلاد بالجواسيس يحصون على الناس أنفاسهم .

لهذا كله كان الشيخ محمد عبده فى بيروت عالماً ومعلّماً فقط ، يملأ زمنه بالتأليف والتعليم ، شَرَح نهجَ البلاغة ومقامات بديع الزمان ، وأخذ يدرّس تفسير القرآن فى مسجدين من مساجد بيروت على الطريقة التى اتبعها بعدُ فى مصر ، لا يتقيد بكتاب فى التفسير خاص ، إنما يقرأ الآية من القرآن و يفسرها من عنده بما يختار من التفاسير و بما يجتهد ، ويستطرد فى شرح أحوال المسلمين ونقدهم حسبما تلهمه الآية .

ودُعى للتدريس فى المدرسة السلطانية ببيروت فأصلح برامجها ونقلها إلى درجة أرقى بكثير مما كانت ، نقلها من شبه مدرسة أولية إلى شبه مدرسة عالية ، وشغل نفسه بالتدريس فيها أكثر الوقت ، فكان يدرّس التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الإسلامى ، والفقه على مذهب أبى حنيفة ، واتخذ بيته نَدْوَةً للحديث العلمىّ والأدبىّ والسَّمَر المفيد ؛ وكان لبقاً فى دروسه وأحاديثه ، يشتاق إليهما المسلم والنصرانىّ .

وكان من آثار إملائه ودروسه فى بيروت ما كان أساساً لما نشره بعد فى مصر من « رسالة التوحيد » و « شرح البصائر » النَّصِيرية فى المنطق .

وعلى الجملة فقد خلق فى بيروت حركة علمية راقية استفاد منها كثير من أهلها .

ولم ينس الجرائد ، فكان يكتب فى جريدة « ثمرات الفنون » مقالاتٍ

الشيخ محمد عبده فى بيروت سنة ١٢٨٣ ﻫ

تشبه تلك التى كان يحررها فى الوقائع ، مثل مقالته فى الدعوة إلى « النقد » والحث عليه ، وأنه أداة لتمحيص الآراء ، ومعرفة وجه الحق فى الأفكار إلخ .

والتفت إلى المصالح العامة للدول الإسلامية ، فوضع لائحتين فى إصلاح التعليم الدينى فى مدارس المملكة العثمانية ، بمناسبة صدور إرادة سنية من السلطان عبد الحميد بتشكيل لجنة تحت رياسة شيخ الإسلام لإصلاح البرامج فى المدارس الإسلامية ، وقد رفع الشيخ محمد عبده إحداهما إلى شيخ الإسلام فى الآستانة ، يرى فيها أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصول الدين ، وأن ذلك أضاع أخلاقهم وأفسدها ، وأن العلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الدينىّ ، وقد رسم لذلك خططه .

ورفع لائحة أخرى إلى والى بيروت تتضمن إصلاح سورية ، ووصف سوء حالها ، وتقسم النزعات السياسية لها بانتشار المدارس الأجنبية فيها ، واقترح تعميم المدارس الوطنية ، و إصلاح برامج التعليم الدينى والعناية به .

ومع انقطاعه للعلم و بعده عن السياسة لم يخل من متاعب ، بسبب حسد بعض الضعفاء الجبناء ، أو بسبب حِدَّة مزاجه ، وكان إذا احتدَّ جَرَح ، فاضطرَّ إلى ترك التدريس فى المدرسة السلطانية لما شَعَر بسوء جوّها .

كانت مدة نفيه التى حكم عليه بها ثلاث سنوات . ولكنه مكث فى المنفى نحو ستّ سنين ، لأن الأمر لم يكن حكما بالنفى فقط ، بل كان أكثر من ذلك ، غضبَ الخديو توفيق عليه ، إذ كان ممن اتُّهم فى الثورة العرابية بجهره بخلع الخديو ؛ وربما كان هذا هو السبب الحقيقى فى محاكمته دون غيره ممن اشتركوا فى الثورة العرابية مثل اشتراكه . وقد كرر هذا المعنى أثناء حديثه وهو فى إنجلترا مع بعض مكاتبى الجرائد ، فقد سأله مكاتب « البول ميل جازيت » عن رأيه فى الخديو ، فقال الشيخ : « إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد

لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله — انضم إلى أعدائنا أيام الحرب — لا يمكن أن نشمر نحوه بأدنى احترام ، ومع هـذا إذا نَدم على ما فَرطَ منه وعَمِل على الخلاص منكم ربمـا غفرنا له ذنبه — إننا لا نريد خَوَنَةً ، وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

لهذا كان من العسير عودته إلى مصر فى عهد توفيق ، ولـكن عادت وزارة رياض باشا إلى الحكم وسعى عند الخديو جماعة فى العفو عنه ، ومنهم الأميرة نازلى ولم تكن تعرفه ولـكنها سمعت عنه كثيراً من رجال مُنْتَداها ومنهم سعد زغلول ، وكانت حسنة الصلة مقبولة الرجاء عند اللورد كرومر ، ومنهم الغازى مختار باشا ؛ وأفعلُ شفاعةٍ كانت — بطبيعة الحال — شفاعةَ اللورد كرومر ، وقد قال فى كتابه « مصر الحديثة » : « إن العفو صدر عن الشيخ محمد عبده بسبب الضغط البريطانى » . وينسُبُ بعضهم الفضلَ الأول فى العفو إلى مختار باشا ، ولـكن المطلع على الأحوال فى ذلك الوقت يعرف أنه ما كان الخديو توفيق يعفو إلا برضا اللورد كرومر أو ضغطه .

وهنا يصح أن نتساءل : ماذا كان وراء الستار ؟ واللورد كرومر لا يُقْدِم على هذا لمجرد رجاء الأميرة نازلى ورجال نَدْوَتِها ، وهو يعلم ما كان من الشيخ محمد عبده مع السيد جمال الدين فى العروة الوثقى التى هاجمت إنجلترا أشد مهاجمة وعدّتها أكبر خصم للمسلمين .

الذى يظهر لى أن أصدقاء الشيخ محمد عبده فى مصر استوثقوا منه أنه إن عاد لا يشتغل بالسياسة العليا ، فقد جرّبها واكتوى بنارها ، ولم يُفد منها ما يرجو لأمتـــه والعالم الإسلاميّ ؛ وإنما يعمل على الإصلاح الدينىّ والنظم الدينيـة ، وهذا لا يضرّ موقف الإنجليز فى مصر فى شىء . وعلى هـذا الأساس قَبِلَ اللورد كرومر شفاعة الأصدقاء ، وضغط على الخديو توفيق ، فسمح له بالعودة ،

وسار الشيخ محمد عبده على النحو الذى سنبينه .

ونتساءل أيضاً : هل يلام الشيخ محمد عبده على هذا الموقف ؟

ونرى أيضاً أنه لو أعدّ نفسه ليكون زعيما سياسياً يرمي إلى تحرير وطنه لكان موضعَ اللوم فى هذه الخطة ، ولعُدّ ذلك تراجعاً . ولكن يظهر من تاريخ الشيخ محمد عبده كله أنه لا يحبّ السياسة بل يلعنها ويلعن مشتقاتها ، ولم يشتغل بالسياسة إلا حين دفعه التيار فى الثورة العرابية ، أو حين كان تحت تأثير أستاذه السيد جمال الدين الناريّ المزاج فى « العروة الوثقى » . أما هو فيرى فى نفسه أنه معلِّم منير عقول ، مُفهِم للحقوق والواجبات ، مصلح للعقيدة الإسلامية ، مدافع عن الإسلام . كان كذلك قبل الثورة ، وكان كذلك فى بيروت ، فلم يتنكّر لمبادئه حين أفهم اللورد كرومر موقفه بواسطة أصدقائه . ولعل هذا هو سببُ ما نلحَظه من فتور فى العلاقات بين السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده من ذلك الحين ، و « كلٌّ ميسَّر لما خُلق له » .

* * *

ماذا يصنع الشيخ محمد عبده فى مصر وقد عاد إليها ؟ إن مصر التى يدخلها اليوم غيرُ مصر التى تركها .

لقد أصبح كل شىء فى يد الإنجليز ، لهم فى كل نظارة من يستبد بالأمر فيها دون الناظر ، حتى الداخلية وحتى التعليم وحتى الأزهر والمحاكم الشرعية . النظار قطع شِطرَنج يلعب بها الإنجليز ، والمديرون فى البلاد خاضعون للمفتش الإنجليزىّ ، والعميد الإنجليزىّ مقصِد كل ذى حاجة ، والمقرَّب إلى الإنجليز مقبول الشفاعة ، مقضىّ الحاجة ، واسع الجاه ، والمبعد عنهم معطَّل الحوائج ، مضطهَد ، محارَب حتى فى أدقّ الأمور — والخديو توفيق مسالم يأخذ بنصائح الإنجليز حتى فى الجلاء عن

السودان ، ويقول لمكاتب التيمس : « إن أمامي واحدةً من ثلاث خطط في الحكم ، إما اتباع نصائح إنجلترا ظاهراً والعمل على محاربتها في الخفاء ، أو إطاعتها إطاعة عمياء ، أو أناقش نصائحها بكل صراحة وأبدى آرائى فيها ، فإذا قُبلتْ فَبها ، وإلا فأنا مضطر لقبولها ؛ وقد أتبعتُ في الحكم الطريقة الأخيرة ، فرُميتُ بالضعف، فهل كان يمكنني أن أقاوم إلى النهاية ؟ » .

إن أهم غرض للشيخ محمد عبده كان إصلاحَ العقيدة والمؤسسات الإسلامية كالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية . ومثل هذا الإصلاح لا بد أن يعتمد فيه المصلح على سلطة قوية تحمى ظهره ، وإلا كان كأىّ عالم من علماء الأزهر لا تُسمع له كلمة ، ولا يؤبه له بدعوة ، فعلى أىّ السلطات يعتمد ؟ .

أعلى الخديو توفيق وهو يكرهه كلّ الكراهية ، ولو ترك له الأمر ما أعاده من منفاه ؟ ثم هو ليس له من الأمر شيء ، ولكنه على كل حال السلطة الشرعية ، والمؤسسات الدينية التي يريد إصلاحها أمسّ به .

أم على الإنجليز وفى يدهم القوة ، ولو عاونوه فى الإصلاح لتحقق بفضل نفوذهم ، ولكن أليس من المهانة أن يُستعان على ذلك بالأجنبي المحتلّ للبلاد ؟ ولو استعان بهم لظُلِّلت دعوته بظلال من وحى الأجنبىّ ، وظن الناس الظنونَ بكل ما يدعو إليه ؛ ولكن هم الذين لهم الفضل فى دخوله مصر ، ولولاهم لظل مبعَداً ؛ ثم هم لا يمانعون فى الإصلاح الدينىّ والمؤسسات الدينية ، إذ هذا الإصلاح لا يؤثر فى مركزهم فى مصر . فما الضرر من الاستعانة بهم لتحقيق الغرض ولوائهم وكُره ؟ .

أم يعتمد على الأمة وهى ضعيفة منهوكة ممزقة ، لم يتكون فيها وعى قومىّ ، ولا شعور بالعزة ، وكبراؤها أسوأ ما فيها ! ثم إن إصلاح العقيدة والمؤسسات الدينية يَهيجها — كما هو الشأن دائماً — لأنها أَلِفت الفاسد حتى لم تشعر بفساده

فإذا دُعيتْ إلى الإصلاح هاجت وماجت ورمت الداعى بالكفر والزندقة ، فكيف يعتمد عليها فى الإصلاح ؟ .

أعتقد أن هذا وأمثاله هو ما كان يدور فى ذهن الشيخ محمد عبده ويحيّره ، وهو فى طريقه إلى مصر عند عودته .

وأظن أنه وضع قراراً فى أعماق نفسه بمسالمة الخديو ما استطاع ، والاستعانة بالإنجليز فيما ينوى من إصلاح .

يدل على هذا أنه وضع تقريراً بعد عودته عما يراه فى وجوه إصلاح التعليم فى مصر ، ورفعه إلى اللورد كرومر ، لا إلى غيره ، تسليما منه بأنه القوة الفعالة . ويدل عليه سيرته الواقعية ؛ فقد ظل طول حياته بعد عودته يسالم الإنجليز ويتعاون معهم ، وهى سياسة لها منطقها ؛ فقد كان يرى أن جلاء الإنجليز لا يأتى إلا من طريق استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته ، وغضبه من الاعتداء على حقوقه ، وهمته فى أداء واجباته ، ومصر لم تكن تبلغ هذا المبلغ ، ووسيلة إصلاحها التعليم — ثم يرى أن مسألة مصر لا تُحَلّ بمواجهة مصر لإنجلترا ، بل بالحالة الدولية العامة ، والتفات الدول إلى أن مصلحتها فى استقلال مصر . وإلى أن يحدث ذلك يجب على القادة أن ينيروا الشعب بالتعليم ولا يجعلوا كلّ همهم الاشتغال بالسياسة ؛ فهو ينقُد جمال الدين لأنه صرف كل جهوده فى السياسة دون الإصلاح الداخلىّ للشعوب ، وينقد الأميرة نازلى فى أنها انصرفت إلى الجهود السياسىّ ولم تؤسس جمعية للنهضة النِّسْويّة — مثلا — وإذا حضر مجلسها لم يحبّ أن يتكلم فى السياسة ، وهى لا تحبّ إلا أن يتكلم فى السياسة .

وكان فى مصر رأيان : رأى يقول إنه لا أمل فى الإصلاح الحقيقىّ إلا بزوال الاحتلال أولا ، ورأى يرى أن الإصلاح الحقيقىّ الداخلىّ هو وسيلة الجلاء ، وعلى الرأى الثانى كان الشيخ محمد عبده وأصحابه ، وعلى الرأى الأول كان مصطفى كامل

وأصحابه ، و بينهما حرب عَوانَ ، يتهم الأولون الآخرين بالرُّعُونة ، ويتهم الآخرون الأولين بالرجعية والضعف .

وطبيعىّ أن يكون الزعماء السياسيون من الرأى الأول ، والمصلحون الدينيون والاجتماعيون من الرأى الثانى . وفى الحق أن السيد جمال الدين كان زعيما للناحيتين ، أو على الأقل اعتقد أن رسالته إصلاح العقيدة الدينية والإصلاح السياسى بمهاجمة الاحتلال الأجنبىّ ، ولكنهما لم يجتمعا إلا فى يده ؛ ثم من بعده دعا دعاة إلى هذا ودعاة إلى ذلك ، فخَلَفه فى مصر فى إصلاح العقيدة الشيخ محمد عبده وتخلى عن السياسة ، وخَلَفه فى السياسة فقط عبد الله نديم ، ثم مصطفى كامل ، ثم سعد زغلول .

ومن الإنصاف — إذا قوّمنا الشيخ محمد عبده فى هذه الناحية — أن نراعى كل ظروفه وكل الأحوال فى زمنه ، فلم يكن الشيخ محمد عبده بِدْعاً فى هذا الاتجاه ، فمِثْله فى ذلك كان السيد أحمد خان المصلح العظيم فى الهند ، فقد رسم خطته أن يصلح الشئون الاجتماعية والدينية لمسلمى الهند مع مسالمة الإنجليز ، حتى لا يحاربوه فى إصلاحه .

ولما اقتنع بهذه النظرية سار عليها قولا وعملا ، وقد استُفتى مرة فى الاستعانة بالأجانب فكان من فتواه : « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين ، وأن الذين يَعْمِدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم وما فيه خير لهم لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وأن من كفّرهم أو فسقهم فهو بين الأمرين: إما كافر أو فاسق ؛ فعلى دُعاة الخير أن يجدّوا فى دعوتهم، وأن يَمْضُوا على طريقتهم ، ولا يحْزُنُهم شتم الشاتمين، ولا يغيظهم لوم اللائمين ، فالله كفيل لهم بالنصر إذا اعتصموا بالحق والصبر » .

فهو فى هذه الفتوى يعبر عن مذهبه ويبرر موقفه . والقارئ لهذه الفتوى يَشْعُر بما يشعر الأستاذ به من مرارة وغيظ .

على كل حال هـذا مفتاح لفهم سياسته ، وما لاقى فى حياته من عناء ، وفى إصلاحه من دسائس ، وفى شخصه من تُهم ، وفى طريقه من عوائق .

***

عاد الشيخ محمد عبده وهو يأمُل أن يكون ناظراً لدار العلوم أو أستاذاً فيها ، فيعيد فيها ما بدأ ، وينير أذهان المعلمين لينيروا أذهان الطلبة ، ولـكن لم يرض الخديو توفيق بذلك ، لأنه إذا فعل أوصل التيار الـكهربائى إلى الأسلاك ، وهو تيار بغيض إليه ؛ ولعل الإنجليز أيضاً لم يرضوا ، ولو شاءوا لضغطوا . فعُين قاضياً أهليًّا فى محكمة بِنْها ثم الزقازيق ثم عابدين ، ثم عُيِّنَ مستشاراً فى محكمة الاستئناف ؛ ولم يكن هذا غريباً ، فقد كان يعيّن فى القضاء أىّ مثقف ممن تمرن على المحاماة ولم تكن معه شهادة ، أو ممن تخرّج فى دار العلوم أو نحو ذلك .

ورأى نفسه — وهو قاض — فى بيئة من القضاة يُدِلّون بمعرفتهم للقوانين الفرنسية وشروحها ، فأبت نفسه الطَّمُوح أن يكون أقل شأناً منهم ، فبدأ يتعلم اللغة الفرنسية وهو قاض فى عابدين ، وسنه إذ ذاك نحو الأربعين ، وجدّ فيها حتى بلغ شأواً[1] لا بأس به ، وقد أطلعه تعلمها على ميدان فسيح استفاد منه كثيراً مما قرأ فى اللغة الفرنسية ، وقد ترجم كتاب التربية لسبنسر بعد أن نُقِلَ من الإنجليزية إلى الفرنسية ، وكان يكمل تعلمه الفرنسية برحلاته إلى سويسرا وفرنسا ، ويستمع إلى بعض المحاضرات ويقابل بعض العظماء ، وكما يقول هو : ليجدد نفسه .

وقد امتاز فى قضائه بتَحرِّيه الحق وتقديره العدالة أكثر مما يقدر نصوص القانون ، ويرجع هـذا إلى سعة أفقه ودراسته للشريعة الإسلامية وعدم تشكله

---

(١) الشأو : الغاية.

تماماً بالقالب القانونى ، ولذلك شكا بعض زملائه من أنه يتحرر من النصوص القانونية ، ولما سئل فى هذا اعترف به ودافع عن وجهة نظره .

* * *

مات الخديو توفيق ، وتولى الخديو عباس سنة ١٨٩٢ وقد عاد من فيينا ممتلئاً حماسة وغيرة وتصميما على مناهضة الاحتلال ، وأخذه خطة جديدة غير خطة أبيه المستسلمة ، والتف حوله بعض شباب مصر المتحمسين ، و بقايا رجال الثورة العرابية الذين تألموا من الهزيمة ولم ييأسوا من تغير الحال ، ووراءهم تركيا وفرنسا تشجعانهم على حركتهم ، وقد ضاع نفوذهما على يد توفيق ، فأمّلا عودته على يد عباس .

و بدأ الخديو عباس بتغيير رجال الحاشية و إحاطة نفسه بما يتفق وسياسته ، و بدأ يتعرّف أحوال مصر بنفسه ، و يتصل بالموظفين والأعيان ، وأحيانا يرأس مجلس النظار ، و بدأت إنجلترا تشعر بما سيصادفها من متاعب على يد هذا الشاب ، وتنتهز الفرص لإحراجه .

رأى الشيخ محمد عبده أن آمال عباس فى الإصلاح يجب أن تستغل ، ووضع خطة أن يتقرب إليه و يوثق الصلة به ، و يحسّن إليه برنامجه فى الإصلاح مع حسن علاقته أيضاً بالإنجليز ، فيكسب السلطتين ، و يعتمد عليهما فى تحقيق أغراضه الإصلاحية ، ويتم له ما يريد . ولكن ستبين الحوادث أن هذا خيال ، وأن الجمع بين صداقة السلطتين كالجمع بين الماء والنار ، وأن إرضاء إحداهما إغضاب للأخرى لا محالة[1] .

على كل حالٍ تقرّب محمد عبده من عباس بواسطة محمد ماهر باشا ، ورحب الخديو بذلك إذ يسره أن يجمع حوله أقوياء الرجال ، وتقابلا مراراً سراً وجهراً ، وحسّن إليه الشيخ محمد عبده أن يتجه إلى إصلاح الشُّعَب الثلاث المتصلة بالدين

---

(١) لامحالة : لاحيلة .

والتى لاشأن للإنجليز بها ، والتى فى صلاحها صلاح للأمة ، وتقوية لمركز الخديو . إذ فى ذلك برهان قوىّ على أنه إذا وكل إليه الأمر أحسن خيراً مما يحسن الإنجليز فى إدارتهم — وهى : الأزهـــر ، والأوقاف ، والمحاكم الشرعية . وليكن البدء بالأزهر ، فاقتنع الخديو بذلك ، وكلفه تقديم تقرير ، ففعل واعتُمد ، وصدر القرار بتشكيل مجلس إدارة للأزهر برياسة الشيخ حسونة ، وفيه الشيخ محمـد عبده ، والشيخ عبدالكريم سلمان ، مندوبين عن الحكومة ، واعتمده مجلس النظار سنة ١٨٩٥ ، وصدق عليه الخديو ، وأتيحت الفرصة للشيخ محمد عبده لإصلاح الأزهر الذى تمناه من يوم أن كان مجاوراً ساخطاً على سوء حاله .

يالله وإصلاح الأزهر ! ما حاوله أحد من قبل ونجح ، ولا الشيخ محمد عبده ، لأن كل المحاولات كانت تتجه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع ، وكانت عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أى قلق واضطراب ، والأزهريون كان يتزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدّته دينا ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً ، وعاشت فى المغارات فلم ترضوءاً ، وأفنت عمرها فى فهم لفظ ، وتخريج جملة ، وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا فإذا أتى مصلح سمم أهله الجو حوله ، واحتَمَوْا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة من شبابه النازعين إلى التجديد وحَرَصوا على مراكزهم أن يكتسحها الإصلاح وجاههم أن ينتقل إلى يد المصلحين ، وبجانبهم طائفة أخرى تؤمن بالقديم عن صدق وإخلاص ، ولكن عن ضيق أفق ، وغفلة عن الحق ؛ هم من جنس ماقال أهل الحديث عن بعضهم : « نتطلب دعوتهم ، ولا نقبل شهادتهم » ، فتتجمع كل هذه العوامل ، فيُضطرّ المصلح — أخيراً — إلى الانسحاب إن غضب ، أو المداراة والمسالمة والرضا بالموجود إن لم يغضب . وتُضطر الحكومة أن تتخلى عن إصلاح الأزهر حبا فى السلامة ، وتتركه يأكل بعضه بعضاً ، وتنشىء بجانبه المعاهد لمعلمى

اللغة العربية والقضـــاء الشرعىّ، لتستطيع تنظيمها والإشراف عليها، إذ أعجزها الإشراف على الأزهر، ومع هذا لا يخلو الجو من شَغْب يقلق بال الحكومة الحين بعد الحين، بين الأصل والفرع، وما يحتضنه الأزهر من طلاب وعلماء، وما تحتضنه الحكومة، وتترك ذلك للزمن، والزمن لا يَحُل المشكل، لأن المشكل لا يُحَل إلا بالعلاج الحاسم.

أخذ الشيخ محمد عبده يحرك مجلس الإدارة للإصلاح وبدأ بالمسائل الشكلية من زيادة رواتب المدرسين وتنظيمها، ووضع لائحة لكساوى التشريف، وتنظيم الجراية، ومساكن الطلبة، والإشراف الصحىّ عليهم، والامتحان. فلما تعرض لشىء من الأساس، وهو ماذا يدرس فى الأزهر، واختيار الكتب، وطرق التدريس، وبرامج الدراسة، زادت العقبات فى سبيله، واضطُرَّ أخيراً إلى الانسحاب. فكانت معالجته سطحية لا علاجاً لأصل الداء. وفى الحق أنه لم يكن يمكنه فى مثل ظروفه غير ذلك.

***

ظل الشيخ محمد عبده يعمل فى القضاء ويحرك مجلس إدارة الأزهر للإصلاح حتى سنة ١٨٩٩، وحدث أن كَثُرت الشكوى من المحاكم الشرعية وقضاتها، ففكر مستشار الحقانية الإنجليزىّ فى إلغائها وضمها إلى المحاكم الأهلية، ولكن حَسَبوا حساباً لِهياج الرأى العامّ، فأرادوا أن يفعلوا ذلك تدريجاً، وذلك بتعيين مستشارَين من محكمة الاستئناف عضوين فى المحكمة الشرعية العليا، فلم يرض بذلك جمال الدين أفندى قاضى مصر التركىّ، ولا الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية. وعرض المشروع على مجلس شورى القوانين فرفضه، ووقف الشيخ حسونة موقفاً شديداً صُلْباً انتهى بتركه المنصبَين، ووقف المشروع. وكان الشيخ محمد عبده يطمح فى أن يعيَّن مكانَ الشيخ حسونة فى المنصبين،

فيقبض على ناصية الأزهر ويتمكن مما ينوى من إصلاح ، ولكن أسرع الخديو فعين الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى للمشيخة ، والشيخ محمد عبده للإفتاء ، فأثّر ذلك فى نفس الشيخ محمد عبده وآمن بأن الخديو لا يطمئن إليه فى باطن نفسه ، ولم يمض نحو شهر حتى مات الشيخ القطب وعُيِّن مكانَه الشيخ سليم البشرى ، فاعتقد الشيخ محمد عبده أن إصلاح الأزهر قد تعقّد بهذا الوضع ، فلم يكن يطمئن إلى الشيخ البشرىّ اطمئنانَه إلى الشيخ حسونة ، ويراه لا يؤمن بإصلاح ، ويدارى ولا يصارح ، ويعمل بإشارة السلطة لا بوحى من نفسه ؛ ومع هذا فمنصِب الإفتاء خلع على الشيخ محمد عبده وجاهة دينية ممتازة ، وهو نفسه قد خلع على المنصب بشخصيته إجلالا واحتراما ، وزاد فى ذلك تعيينه فى السنة نفسها عُضواً دائماً فى مجلس شُورَى القوانين .

وظلت العلاقة بينه و بين الخديو عباس حسنة فى ظاهر الأمر ، فالخديو يستشيره إذا تعقدت الأمور بينه و بين الإنجليز ، كاستشارته له عندما أرادوا تعيين قاض مصرىّ بدل القاضى التركىّ . وكان الخديو لا يرى هذا الرأى لأنه يضعف صلة مصر بتركيا و يمكن من سلطة الإنجليز ؛ وكاستشارته له فى مسألة « ليون فهمى » الأرمنى ، وكان قد قبض عليه الخديو وحبسه فى قصر رأس التين لاتهامه بتزوير ختام باسم رئيس كتاب « يلدز » وأراد اللورد كرومر أن يفتش عنه فى القصر ، ورأى الخديو أن هذا منتهى الإهانة ، وقد أشار الشيخ محمد عبده على الخديو بما أنقذه من الموقفين .

كان الشيخ محمد عبده إلى هذا الحين يتفق ورأى الإنجليز فى أن الخديو ليس له أن يستبدّ بتصريف الأمور ، أو أن يكون حكومة داخل حكومة ، وأن ليس من مصلحته ولا مصلحة مصر أن يحارب جماعة تركيا الفتاة خدمةً لتركيا ، وفيهم قوم أحرار لم يرضهم ظلم عبد الحميد ولا عَسْفه ولا استبداده ، وأن من الخير للخديو

أن يوجه أنظاره إلى ترقية الشئون المصرية كالتعليم وإصلاح المحاكم الشرعية وإصلاح الأزهر، فهو بذلك يخدُم بلاده.

والشيخ محمد عبده يَصْدُر فى هذا عن مِزاجِه وطريقته فى التفكير والإصلاح، ويتكلم فى ذلك فى مجالسه الخاصة، فيبلغ الخديو فيُسِرُّها له.

ولكن حدث أن خلا مكان لكسوة التشريفة فى الأزهر، فأراد الخديو أن يشغله الشيخ محمد راشد مفتى المعية، ولم يكن تنطبق عليه اللائحة الموضوعة، فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ ذلك الأمر وإعطاء الكسوة للمستحق، وزاد الطين بِلّة أن العلماء لما اجتمعوا عند الخديو فى التشريفات كلم الخديو شيخ الجامع فى غضب وتوبيخ، فرد الشيخ محمد عبده فى حِدّة: «إذا شاء أفندينا أن تكون كساوى التشريف بمقتضى إرادته الشخصية فليُصْدِرْ بذلك قانوناً آخر ينسَخُ هذا القانون» فلما سمع الخديو هذا الردّ احمرّ وجهه ووقف، إيذاناً للحاضرين بالانصراف. وآلى[1] على نفسه أن يُخرج المفتى ويكِيدَ له حتى يخرجه من منصبه، وينتقم من فَعْلَتِه.

ثم أعقب ذلك وقوف الشيخ محمد عبده وحسن باشا عاصم فى أرض يريد الخديو استبدالها من الأوقاف، ورأيا أن هذا العرض ليس فى مصلحة الوقف، وحملا مجلس الأوقاف الأعلى على رفض هذا الاستبدال إلا إذا دُفع للوقف عشرون ألفاً فرقاً بين الصفقتين.

انكشف الغطاء وظهر العداء ودُبرت المؤامرات ودُسّت الدسائس، وكلما أمعن الخديو فى ذلك اضطرَّ الشيخ محمد عبده إلى كثرة الاتصال بالإنجليز، وكلما اتصل زاد غضب الخديو، حتى لقد هم الخديو بعزله من الإفتاء، فصرح اللورد كرومر: «إنه لا يوافق على عزله من منصب الإفتاء، مهما كانت الأحوال، ما دام موجوداً».

(١) آلى: أقسم.

الشيخ محمد عبده في تونس

والشيخ محمد عبده جادّ فى إصلاح الأزهر والنهوض بالجمعية الخيرية الإسلامية لنشر التعليم وإعانة المنكوبين ؛ وهو رسول السلام بين مجلس الشورى والحكومة ، وداعى المصالحة فيما تعقّد من الأمور ؛ يَكسِب من الإنجليز بقدر ما يستطيع ، وهو موضع ثقة المجلس وثقة الحكومة وثقة الإنجليز ، يستشيرونه فى كثير من الأمور فيشير بما يعتقده الحق ؛ ثم هو ينير الخاصة بما ينشر من أفكاره فى الدين والإصلاح الاجتماعىّ والأخلاقىّ والسياسىّ على مذهبه .

وهو يحارَب أشد محاربة وأعنفها من جهات متعددة . الخديو عباس يتخذ السيد توفيق البكرىّ وغيره وسيلة للإفساد بينه وبين رجال الأزهر وتحريضِ أعضاء مجلس الإدارة بالأزهر على الاستقالة حتى يُحِلَّ محلهم من يكرهون الشيخ محمد عبده ويقفون فى سبيله . وكثير من شيوخ الأزهر يخاصمونه لأنه يهدم قديمهم وإلْفهم ، ويطلُع عليهم بجديد لم يألفوه ، ويشيعون بين العامة كفره وزندقته .

والحزب الوطنى — وعلى رأسه مصطفى كامل — يحاربه ويرميه بالمروق من الوطنية ، لأنه يشايع الإنجليز ويتخذهم أعوانه ؛ وتُكتب التقارير السرية ضده للآستانة ، فإذا سافر إليها استُقبِلَ استقبالا ميئاً ، وعُمِلَت التدابير لإهانته لولا لطف الله .

والجرائد الهزلية تشهِّر به أشنع تشهير ، إما بإيعاز من خصومه وقبض الثمن منهم ، وإما مجاراة للعوام وأشباههم باسترضائهم لترويج جرائدهم .

فى كل يوم حادثة ، وفى كل ميدان موقعة ، وفى كل جريدة ذكر ، وفى كل مجلسٍ مناظرة بين الاتهام والدفاع ، واسم الشيخ محمد عبده على كل لسان ، وعيشته عذاب فى عذاب ، وهو لا تفتُر قوته ، ولا تخبو عزيمته ، وإن كان كل ذلك يَهُدّ فى أعصابه ، ويهدِم من كيانه .

لقد تلقى المفتى سؤالين من بعض مسلمى الترنسفال ، وهما :

(١) بقر يضرب على رأسه بالبلطة حتى تضعُف مقاومته ، ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ؟

فأفتى الشيخ بحِلها ، فقامت عليه قيامة العلماء يقولون إنهـا محرمة لأنها هى الموقوذة التى حرم الله أكلها ، والشيخ يقول إن الموقوذة هى ما ضربت بشىء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت ، وهذه ذبحت قبل موتها .

والسؤال الثانى : يوجد أفراد فى هذه البلاد (الترنسفال) يلبسون البرانيط لقضاء مصالحهم وعَوْد للفوائد عليهم ، فهل يجوز ذلك أو لا ؟ .

فأفتى أيضاً بالجواز وقال : « أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الإسلام والدخول فى دين غيره فلا يعدّ مكفِّرا ، وإذا كان اللُّبْسُ لحاجة من حَجْب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يُكْرَهْ كذلك ».

فهُيِّجَت عليه الجرائد كجريدة الظاهر وجريدة اللواء .

وزاد خصومه وقاحة ، فلفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الإفرنج وحملوها للورد كرومر ، وأفهموه أن هـذا فى عُرْفِ المسلمين لا يجوز صدوره ممن يتولى منصب الإفتاء ، فلم يأبَهْ لقولهم . وصوّرته الجرائد الهزلية بصور شنيعة ، وحُكِمَ على أصحابها بالحبس .

وهكذا لم يتورع خصومه أن يحاربوه بأسفل الوسائل ، وكان بعض هذا يكفى لعدوله عن جهاده ، وكان بعض أصدقائه كسعد زغلول وقاسم أمين يَعيبونَ عليه إلحاحه فى إصلاح الأزهر ، مع أنه غير ممكن بهذا الوضع ، وهو — مع كل هذا — مصرّ على المضىّ فى عمله تَشْحَذُه الخصومة ، ويأرَقُ بعضَ الليالى مفكراً فى وسائل الإصلاح ويقول : إن وِجدانى الدينىّ لا يرضَى بالصمت عن المفاسد .

وآخرون من خُلَصائه كانوا يعيبون عليه عداءه للخديو على هـذا الوجه ، ويرون أن الأجدر به أن يغضّ النظر عن هفواته ، ويقولون : ماذا عليه لو أعطى

كسوة التشريف لغير مستحقها ، أو تساهل فى استبدال الوقف ، ثم كان ثمن ذلك أن تطلقَ يده فى الإصلاح كما يريد ، وحينئذ يجد من الخديو كل عون ! ولكن فاتهم أن الطبيعة تأبى أن تخلقَ من علىّ معاوية ، أو أن تجعل من عُمَر عَمْراً .

وعابوه أنه نظر إلى الخديو عباس من جانبه الأسود ، وهو جَشَعهُ المادى ووسائله فى ذلك ، ولم ينظر إلى جانبه الأبيض وهو إباؤه الاستسلام للمحتلين ، وتشجيعه الحركة الوطنية وتغذيتها وتنميتها . بل إن الشيخ محمد عبده كان يناهض أيضاً دُعاةَ الحركة الوطنية ، ويرميهم بالتَّهَوُّر ، ويقنَع فى آماله الوطنية بالقليل ، كما يدل عليه كتاباه اللذان نشرا بعد موته ، وكان قد أرسلهما إلى صديقه مستر « بلنت » يشرح فيهما مذهبه فى الإصلاح السياسى ، وفيهما قناعة فى السياسة لا ترضى الوطنيين ، وقد أثارا نفوس الخديو والوطنيين وحتى بعض المعتدلين .

ولكن — مهما كان الأمر — فإن العظيم يجب أن يقدَّر من جميع جوانبه لا من جانب واحد ، وكان الشيخ محمد عبده مصلحاً دينيّاً ومصلحاً اجتماعيّاً ومصلحاً للغة والأدب ، وشخصية بارزة فى التفكير ، وأخيراً سياسيّاً . فإن هو لم يوفق فى سياسته فهذا لا يقلل من نواحيه القيِّمة الأخرى . نعم يُسقط الرجل فى السياسة أن يُشترَى بمال أو يبيع ذمته لمنصِب ، ولكنا نجزم أن الشيخ محمد عبده كان وفيّاً لأمته مخلصاً نزيهاً ، يسلك هذا المسلك السياسى عن عقيدة وتقدير للمصلحة ، ويجتهد أحياناً ، فيخطىء وتحمله الظروف القاسية أحياناً على ما يَكرَه .

والحق أن كثيراً من شيوخ الأمة كانوا فى ذلك الوقت على مثل رأيه السياسىّ ، كسعد باشا زغلول ، وفتحى باشا زغلول ، وحسن باشا عاصم ،

ومحمود باشا سليمان وغيرهم من رجال حزب الأمة ، ولكنه هوجم من هذه الناحية أكثر مما هوجموا ، لأن الخديو عباس كان يؤلب عليه أكثر مما يؤلب عليهم ، ولأن الناس اعتادوا أن يروا رجال الدين بعيدين عن السياسة وخاصة مع المحتلين .

في سنة ١٩٠٥ كان الأزهر هادئاً وعلى رأسه السيد على الببلاوى ، وكان رجلا يرتاح إلى الشيخ محمد عبده ويرتاح محمد عبده إليه ، والأمور سائرة سيراً طبيعياً ، فظهرت فجأة حركة تدعو إلى الشغب وتشكو من شيخ الأزهر ومن مجلس الإدارة ، وكان القائمون بها من المتصلين بالخديو ، على أثر رفض الشيخ محمد عبده وحسن عاصم استبدال الوقف الذى أشرنا إليه — وعلى أثر هذا الشغب استقال السيد على الببلاوى ، وعيّن الخديو عباس الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، وهو ممن لا يستطيع الشيخ محمد عبده العمل معهم لرجعيته وجموده . وخطب الخديو في حفلة الإنعام بالخلعة على الشيخ الشربينى خطبة تدل على الغيظ الشديد من الشيخ محمد عبده وصحبه ، قال فيها : « إن الأزهر أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية ، تنشر علوم الدين فى مصر وجميع الأقطار العربية . ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ، ولكن مع الأسف رأيت فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل . . . وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر ، والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنه مدرسة دينية قبل كل شىء ؛ وقد استقال السيد على الببلاوى رعاية لصحته ، وقد جريت منذ اثنتى عشرة سنة على أن أقبل استقالة كل من يستقيلنى من وظيفته ، فقبلت استقالته ، ومن يستقيلنى من وظيفته سواه فأنا مستعد أن أقبل منه ، جرياً على العادة التى اتبعتها . ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال ، أو بواسطة الجرائد

والأخذ والردّ ، فليكن بعيداً عن الأزهر ، ومن كان أجنبيًا من هؤلاء (يريد السيد محمد رشيد صاحب « المنار ») فأولى أن يرجعَ إلى بلاده ، ويبثّ فيها ما يريد من الأقوال والآراء المغايرة للدين ولمصلحة الأزهر والأزهريين » .

فلم ير الشيخ محمد عبده بدًّا من الاستقالة ، وقد آمن بعجزه عجزاً تاما عن إصلاح الأزهر الذى يريده .

لم يلبث بعد هذه الحادثة أن أحسّ وطأة المرض ، فعزم على السفر إلى أوربة للاستشفاء ، ولكن لم يمنعه ذلك من العمل فى مجلس الشورى ومجلس الأوقاف والجمعية الخيرية الإسلامية ، وامتحان دار العلوم ، وإعداد مشروع مدرسة القضاء ؛ ثم ألحّ عليه المرض واختلف الأطباء فى تشخيصه : هل هو المعدة أو الكبد ؟ ثم تبين أنه — مع الأسف — السرطان ، فأشاروا عليه بعدم السفر . وفى يوم ١١ يولية سنة ١٩٠٥ فاضت رُوحُه إلى ربها عن نحو ستة وخمسين عاما ، وكان برمل الإسكندرية فى منزل صديقه محمد بك راسم ، وقرر مجلس النظار أن تحتفل الحكومة رسميًّا بتشييع جنازته فى الإسكندرية ومصر ، وكان مشهداً مَهِيباً رائعاً ، ثم دُفن بقرافة المجاورين .

وكان الخديو متغيّباً عن مصر ، فأنّب من احتفل به ، أو احتفى بجنازته من رجاله .

وبعد ، فما إصلاحه ؟ وما مبادئه فى الإصلاح ؟ وما أثرها فى الأمة ؟

***

صوّره السيد جمال الدين مرة تصويراً لطيفاً ، إذ رأى منه عزة نفس وإباء ضَيْم ، وترفعا عن سفساف الأمور وطموحاً إلى معاليها ، فقال له : « أىّ مَلِكٍ فى جِلْدِكَ ؟ » .

وكان مع هذه العزة والإباء حىّ الضمير حسّاس النفس عَطُوفًا على البائسين

والمنكوبين ، فماله أقلّه له وأكثره للإعانة والإغاثة والنجدة ؛ يصف شعوره فى حريق ميت غمر فيقول : « لما قرأت وصفَ الحادثة كان لهبُ الحريق يأكل قلبى أكله لجسوم أولئك المساكين ، ويصهر من فؤادى ما يصهرُ من لحومهم ، أرقتُ تلك الليلة ولم تغمُضْ عيناى إلا قليلا ، وكيف ينام من يبيت يتقلب فى نِعَم الله وله هذا العدد الجمّ من إخوة وأخوات يتقلبون فى الشدّة والبأساء؟ أردتُ أن أبادر بما أستطيع من المعونة ، وما أستطيع قليل لا يُغْنِى عن الحاجة ولا يكشف البلاء ، ثم رأيت أن أدعو جمعاً من أعيان العاصمة ليشاركونى فى أفضل أعمال البر فى أقرب وقت » . وكذلك فعل فى كثير مما أصاب البلاد من بلاء .

وصوّره السيد جمال الدين مرة أخرى فقال له : «إن بين برديك قرداً يخرج رأسه فى بعض الأحيان » يشير إلى ما يعتريه من الحدّة أحياناً ، كالذى كان منه مع الخديو عباس مما رويناه قبلُ ، وفى الدرس إذا سئل سؤالا سخيفاً ، وفى بعض تصرفاته ؛ ولكن هذه الحدّة كانت أيضاً مصدرَ قوة له ، فكان يغضب لما يعتقده الحق ، وينفعل لما يصيب الناس من أذى ، والمنكوبين من مكروه ، ثم هذه الحدّة أضفتْ عليه من المهابة والتوقير الشيء الكثير .

وهو — مع هيبته وحدّته — طيب القلب سليم الصدر ، وفىٌّ لأصدقائه ، لطيف الحديث ، سمح النفس ، ينصف الناس فى الحق حتى من نفسه ، أَمْيَزُ شىء فيه شجاعته الأدبية ، لا يدارى ولا يمارى ، ويقول ما يعتقد أمام أىّ عظيم ، ويعتمد فى شجاعته على ربه وإيمانه . وكم سببت له شجاعته وصراحته من متاعب احتملها فى صبر وثبات ، علماً منه بأن المقدمة لا بد أن تتبعها النتيجة .

وكان أهم خصائصه غيرته الشديدة على الإسلام والمسلمين ، هى محور أعماله ومصدر آلامه وآماله . حدثنى صديق قال : « كنت أسير مع الأستاذ فى « جنيف » من أعمال سويسرة ، وكنا نتلقى معاً بعض المحاضرات الصيفية فى جامعتها ، فجاء

ذكر الإسلام والمسلمين ، فقال الشيخ : إنى وهبت حياتى لإصلاح العقيدة الإسلامية وتنقيتها مما عَلِقَ بها من الخرافات والأوهام . فقلت : وهل الدين عند العوامّ إلا الخرافات والأوهام ؟ وماذا يبقى عندهم لو زالت ؟ فرأيته وقد احمرّ وجهه وغضب غضبةً ما رأيته غَضِبَ مثلها ، فتأوَّلتُ ما قلت حتى هدأت ثورته » .

كم لاقى من عناء فى سبيل إصلاحه ، وكم اتهم وكم سُبّ وكم دُسّ له ، وكم نصح له أصدقاؤه أن يستريح من هذا العناء ، ويعود إلى القضاء ، فما طاوعته غيرته أن يسمع لقولهم .

لقد ذكر الشيخ محمد عبده ما يصحّ أن يكون مجمع إصلاحه ، ومجملَ رسالته ، فقال : « ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سَلَف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لتردّ من شَطَطِه ، وتقلل من خَلْطِه وخَبْطِه . . . وأنه على هذا الوجه يُعَدّ صديقاً للعلم ، باعثاً على البحث فى أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل . . . والأمر الثانى إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية أو فى المراسلات بين الناس — وكانت أساليب الكتابة فى مصر تنحصر فى نوعين كلاهما يمُجُّه الذوق ، وتنكره لغة العرب : الأول ما كان مستعملا فى مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رثّ خبيث غير مفهوم ولا يمكن ردّه إلى لغة من لغات العالم ، لا فى صورته ولا فى مادته . والنوع الثانى ما كان يستعمله الأدباء والمتخرّجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعَى فيه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحَظ فيه الفواصل

وأنواع الجناس وإن كان رديئاً فى الذوق بعيداً عن الفهم ، ثقيلا على السمع ، غير مؤدٍ للمعنى المقصود.

« وهناك أمر آخر كنت من دُعاته والناس جميعاً فى عمىً عنه . ولكنه الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية . وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه . وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهى لم يخطُر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد على عشرين قرناً ؛ دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يردّه عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته ، إلا نُصح الأمة له بالقول والفعل . جهَرْنا بهذا القول والاستبدادُ فى عُنفوانه ، والظلم قابض على صَوْلجانه[1] ، ويدُ الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أىّ عبيد .

« ولم أكن فى كل ذلك الإمامَ المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت رُوح الدعوة وهى لا تزال بى فى كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرَحُ أدعو إلى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدَر يقدّره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غِراس تغرِسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال ، فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يُعْنَى به الآن ، والله المستعان » .

فى هذا القول الموجَز كل حياة الشيخ محمد عبده الإصلاحية ، وكل رسالته ، وكل نجاحه وفشله . ثلاثة أمور اتجه إليها : إصلاح الدين ، وإصلاح اللغة والأدب ، وإصلاح السياسة . فلنذكر كلمة فى عمله فى كل منها .

---

(١) الصولجان : عصا معوجة الرأس .

فأما إصلاحه الدينى فاتجه فيه إلى إصلاح الأزهر . وكان رأيه أنه إذا أُصلح خَدم العالم الإسلامي أكبر خدمة ، لأنه سيخرج قوماً غُيُراً على الدين ، متنورين ، ينبثون فى جميع أنحاء العالم الإسلامي فيحملون مثل رسالته ويقومون بمثل دعوته ؛ وقد استعان على ذلك بالخديو والإنجليز وبمنصبه وجاهه وأصدقائه ، ثم كان من أمره ما ذكرنا ؛ ولهذا وأمثاله وصفه اللورد كرومر بأنه « كان رجلاً مستنير الرأى ، بعيد النظر ، خياليًّا ، حالماً بعضَ الشىء ، ولكنه كان وطنيًّا صادقاً » .

ومع أنه لم يصل فى الأزهر إلى ما يريد ، ولا إلى بعض ما يريد ، فقد خَلَّفَ فيه طبقة مستنيرة ، وإن كانت قليلة ، اعتنقت مبادئه وتشبعت بآرائه ، وإن لم تكن لها حماسته وغيرته .

واتخذ أهم وسيلة لإصلاح العقيدة تفسير القرآن الكريم ، جعله دَيْدَنَه يدرّسه فى بيروت فى مسجدين ، ويدرسه فى أحد مساجد القاهرة وهو قاض ، ويدرسه فى الأزهر وهو فى القضاء والإفتاء ، ويتخذ موضوع محاضرته فى الجزائر تفسير سورة العصر ، ويفسر جزء عَمَّ لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وينشر دروسه فى التفسير فى مجلة المنار لِيُقْرَأ فى العالم الإسلاميّ .

كان يقرأ الآية ، فإذا اتصلت بالعقيدة شرحها شرحاً وافياً ، عارضاً ما ورد فى القرآن فى موضوعها ، مبيناً ما دخل على المسلمين فى هذه العقيدة من فساد ودَخِيل ، وإذا اتصلت الآية بالأخلاق أبان أثر هذا الخُلق فى صلاح الأمم وضياعه فى فسادها ، وإذا اتصلت بحالة اجتماعية أوضح أثرَ هذه الحالة الاجتماعية فى حياة الأمم ، مسترشداً بالواقع ، مستشهداً بما يجرى فى العالم ، فى بيان متدفق ولسان ذَلِق وصوت جميل أخَّاذ ؛ فهو تفسير عمليّ يشرح الواقع ويبيّن سببه ، وهو أخلاقيّ يدعو للعمل على مبادئ الإسلام ، ويبين أنها مَنْبَع السعادة فى كل العصور ؛ وهو رُوحانيّ يدعو إلى السموّ بالنفس إلى العالم العلويّ ، وينزّه الله عما

دخل على العقيدة من فساد بالإشراك مع الله الأولياء وعبادة الأضرحة والتشفّع بأهل القبور ، وإقامة الموالد ونذرِ النذور ؛ وهو فى كثير من مبادئه يشبه تعاليم الوهابية فى الرجوع إلى الأصول الأولى للإسلام ، وتنقيته من البدع والخرافات والأوهام ؛ ولكنه يتقبل ما صلح من مبادئ المدنية الحديثة ، ويدعو إلى الأخذ بها ما اتَّفقت والإسلام .

الإسلام دين توحيد لا شِرك فيه ، تنزيه لا تجسيم فيه ، وهو دين يعتمد على العقل ويستنهضه لإدراك أن العالم له صانع واحد عالم قادر ، والعقل ضرورىّ للدين ، فهو المرشد إليه ، والدين ضرورىّ للعقل لأنه يكمله ويقوّمه .

والإسلام يفسَح صدره للعلم ويدعو إليه ، لأن العلم يكشف أسرار الكون ، وذلك يفضى إلى معرفة الله وإجلاله .

وهو فى تفسيره يحاول التوفيق بين الإسلام ونظريات المدنية الحديثة ، ويتبع طرقاً من التأويل للتوفيق بين الدين ونظريات العلم .

أكبر قيمة له فى تفسيره أنه كان يحيى العواطف ، ويحرك المشاعر ، أكثر مما يستقصى بحث المسائل العلمية ؛ فهو يتجه إلى القلب أكثر مما يتجه إلى العلم والعقل ، متأثراً فى ذلك بطبيعة الدين نفسه ؛ أفادته سَعة اطلاعه على الفلسفة الإسلامية ثم اتصاله بالثقافة الغربية ، وقراءته بعض أصولها ، ورحلاته إلى أوربة ، وملابسته لحياتها ، ومقابلته لبعض فلاسفتها ، وسماعه بعض محاضراتها ، أن ينظر إلى حال المسلمين نظرة إشفاق فى عقيدتهم وأعمالهم ، فيبثّ كل ما يرى من إصلاح حول تفسير آيات القرآن .

واستمر يدرّس هذا الدرس فى الأزهر نحو ست سنين ، كان يحضُره كثير من عِلْية القوم وكبار القضاة والموظفين وشباب الأزهر وللمدارس العالية ، وكان درسه ذا أثر كبير فيهم .

كان يرى أن إصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر وأصحّ من إصلاحهم من طريق الإصلاح المعتمد على مجرد العقل ومقياس المنفعة والتقليد الأوربى ، وأن هذا الطريق هو الذى سلكه جميع المصلحين المسلمين . يقول : « إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سَلِمت العقائد من البِدَع ، تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب ، واستقامت أحوال الأفراد ، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسَرَى الصلاح منهم إلى الأمة . . وإذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق ، وصلاح الأعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما بَيَّنَّاه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخفّ من إحداث ما لا إلمام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟ » .

وعلى هذا الأساس فى التفكير كان يريد أن يسيطر على برامج التعليم فى المدارس ، حتى يصلح النفوس من هذا الطريق ، بالتوسع فى التاريخ الإسلامى ، وبث مبادئ الدين الصحيح ، ولهذا كان ينتهز كل فرصة لتقديم تقرير عن التعليم ؛ فعل ذلك لما كان فى الوقائع قبل الثورة العرابية ، حتى شكل مجلس التعليم الأعلى بناء على سعيه ، وكان هو فيه عُضواً بارزاً ، وفعل ذلك عندما كان فى بيروت ، فكتب تقريراً فى إصلاح التعليم رفعه إلى شيخ الإسلام فى الآستانة ، حتى لم يتحرَّجْ أن يرفع تقريراً بذلك إلى اللورد كرومر بعد عودته ، فلما لم تتحقق مطالبه رجا أن يكون على رأس دار العلوم يبثّ روحه فى طلبتها فيبثون روحهم فى طلبتهم ، فلما يئس من ذلك أيضاً وجه همته إلى الجمعية الخيرية الإسلامية يضع لتلاميذها مناهج دراستهم ، ويؤلف لهم تفسير جزء عمّ . وهكذا كان دائماً يريد أن يسيطر على التعليم ليوجهه الوجهة التى يريدها .

وكما جدّ فى نشر تعاليمه وآرائه فى الإسلام جدّ فى الدفاع عنـه ، وكانت تأخذه الغيرة الشديدة إذا مسّه أحد بسوء . يتجلى ذلك فى موقفين شهيرين :

١ — رده على هانوتو — ففى أوائل سنة ١٩٠٠ نشر هانوتو مقالا عن الإسلام بمناسبة سياسة فرنسا فى المستعمرات الإسلامية ، ثم تعرض للمقارنة بين المدنية النصرانية والإسلامية، ووازن بينهما فى مسألتين: ذات الله والقضاء والقدر. فقال : إن اعتقاد النصارى فى التثليث ، وتصورهم للإله الإنسان جعلهم يرفعون مرتبة الإنسان ويخوّلونه حق القرب من الذات الإلهية ؛ على حين أن العقيدة الإسلامية بدعوتها إلى التوحيد وتنزيه الله عن البشرية ، حطت الإنسان على الضعف والوهن ، والعقيدة المسيحية القائلة بحرية الإنسان وإرادته ، دفعته إلى العمل والجدّ ؛ أما عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر فحملتهم على الجمود والركود .

ونُشرت ترجمة هذا المقال فى المؤيد ، فلم ينم الشيخ محمد عبـده ليلته حتى كتب الرد عليها ، وظهرت أول مقالة له فى ثانى يوم ، ثم تتابعت مقالاته ، بيّن فيها فضل الإسلام ، وأن عقيدة التوحيد أسمى فـكرة ، وأن الإسلام لم يدعُ إلى الجَبْريَّة بالمعنى الذى يفهمه هانوتو ، وأن فى القرآن أربعاً وستين آية تثبت حرية الإرادة إلخ . وكان من نتائج هذا كتابه المشهور « الإسلام والنصرانية » .

٢ — وأما الموقف الثانى فقد نشر فرح أنطون فى مجلة « الجامعة » مقالا عن ابن رُشد قرر فيه أن المسيحية كانت أوسع صدراً وأكثر تسامحاً للعلم والفلسفة من الإسلام ، فرد عليه الشيخ محمد عبده فى سلسلة مقالات ، يثبت فيها سَعة صدر المسلمين للفلاسفة وأهل العلم والأديان الأخرى ، مما لم يكن له نظير فى أىّ دين آخر .

وهكذا كانت حياته فى خدمة دينه .

* * *

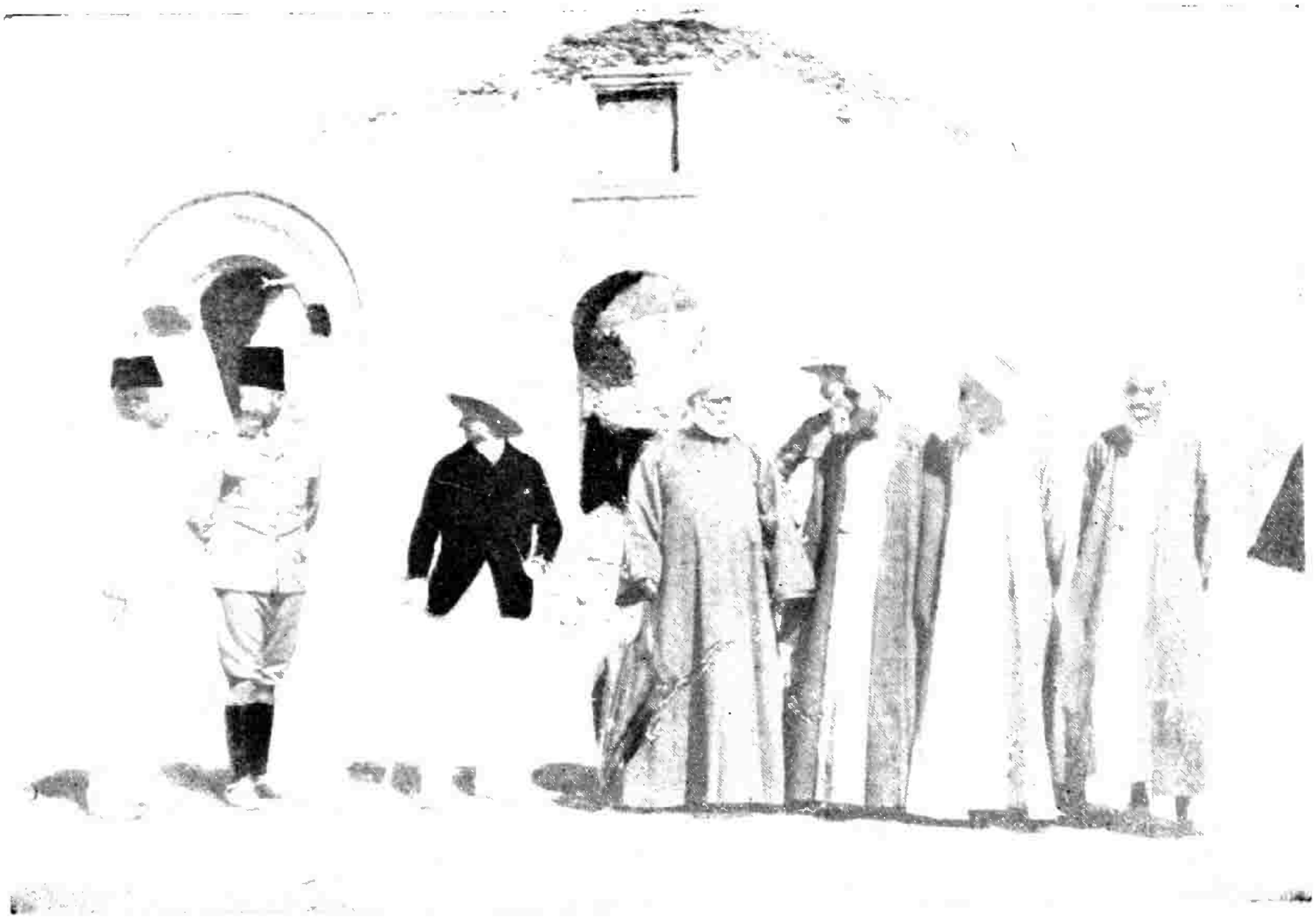

الشيخ محمد عبده فى السودان مع طائفة من العلماء ومفتش انجليزى وسلاتين باشا

أما إصلاحه اللغوىّ والأدبى فقد بدأه بإصلاح أسلوبه نفسه ، أخذ يكتب فى جريدة الأهرام بأسلوب متأثر بالكتب الأزهرية ، وخاصة بما ألف فى الفلسفة الإسلامية ، وبما هو شائع فى ذلك العصر من السَّجْع والازدواج ، وبمقدمات طويلة قبل الدخول فى الموضوع . ثم أخذ يَقْوَى أسلوبه ويصحّ ويزداد حركة وقوة من روح أستاذه جمال الدين ، كما يتجلّى فى مقالات العُروة الوثقَى ، ثم مرن قلمه وتدفق من طول ما كتب وعالج ، حتى بلغ غايته فى مقالاته فى الرد على هانوتو ، حيث تجمل بجمال البساطة وتدفق المعانى ، فى سلاسة وقوة .

ونظر إلى أساليب الكتّاب فحاول إصلاحها ما استطاع ؛ فكان يقدم نماذج للكتابة أيام كان مشرفاً على الوقائع المصرية بما يكتبه هو وأصحابه فيها ، وكان يَلفِت نظر الجرائد إلى سوء أسلوبها ، ويُلزم أصحابها أن يختاروا من يرفع مستوى الكتابة فيها .

ولما كان فى بيروت كان يعلم فى « المدرسة السلطانية » الإنشاء . ونشرَ مقامات بديع الزمان الهَمَذانى بعد أن ضبطها وشرحها ، و « نهج البلاغة » بعد أن ضبطه وشرحه ، يرمى بذلك إلى تغذية الناشئين بأدبهما واتخاذهما نَموذجاً من نماذج الأساليب الجيدة .

ولما عاد إلى مصر كان من دروسه درس فى البلاغة لا على نَمَطِ البلاغة التى أفسدتها الفلسفة ، بل على النمط الذى يربى الذوق ويرقى الأسلوب ؛ فقرأ كتابَىْ دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجُرْجانىّ ، وكان هو السبب فى نشرهما ، فقدم بهما معنى للبلاغة لم يَكُنْ مفهوماً للناس من قبل .

وفى سنة ١٣١٨ أسَّس فى مصر جمعيـــة برياسته سُمِّيَتْ « جمعية إحياء الكتب العربية » كانت فاتحة أعمالها نشر كتاب المخصِّص فى اللغة ، وقد عُهِد فى تصحيحه للعالم اللغوىّ الشيخ محمد محمود الشّنقيطىّ . وشرعت الجمعية بعد

المختص فى إعداد مُدَوَّنة الإمام مالك للطبع بعد أن استحضر لها الشيخ محمد عبده أصولا من تُونُس وفاس .

وهو الذى أخذ بيد الشنقيطى ولولاه ما بقى فى مصر ، فكان الشنقيطى علماً من أعلام اللغة يعلمها للناس ويصحح ما تعقَّد من الكتب ، وينشر البحوث اللغوية الدالة على اطلاع واسع وتدقيق عميق .

وهو الذى عهد إلى الأستاذ سيد المرصفى فى تدريس كتب الأدب بالأزهر ، أمثال كتاب الكامل للمبرّد وديوان الحماسة لأبى تمام ، ولم يكن ذلك معروفاً من قبلُ ، فكان عمله هذا سبباً فى نهضة لغوية أدبية واضحة تأثر بها كثير من الأدباء البارزين وتلاميذهم . فإن قلنا إنه حوّل الكتابة من كتابة مسجوعة سخيفة إلى كتابة مرسلة جميلة ، ومن كتابة فارغة المعانى إلى كتابة يُعْنَى فيها بالمعانى لم نبعد.

أما إصلاحه السياسى فكان فى مجلس الشورى مذ عُيِّن عضواً به ، فكان قوة فعالة فيه . قال صديقه حسن عاصم وكان زميلا له فى المجلس : « لقد عُيِّن الشيخ محمد عبده سنة ١٨٩٩ ، وكان بين أهْل الحَلّ والعَقْد فى الحكومة وبين رجال مجلس الشورى شىء أشبه بالخلاف فى الرأى ، أدّى إلى أن الحكومة نفذت كثيراً من المشروعات التى كان المجلس يرى الخير للأمة فى عدم العمل بها ، وصرفت النظر عن كل أوجه التعديل فى المشروعات التى كان يرى أن الصلاح والنفع للأمة فى تعديلها . فلما جاء الأستاذ إلى المجلس ونظر فى الأمر نظرة الحكيم البصير ، وعرف أن ليس هناك ما يدعو إلى هذا الانفراج ، وإنما هو سوء التفاهم باعد ما بين المَشَارِب على تقاربها ، سعى رحمه الله فى أن يزيلَ أسبابَ هذا الخلاف ، فكان ما أراد ؛ وعرفت الحكومة أن المجلسَ إنما يطلب ما فيه سعادة الأمة ، ويبتغى الخيرَ لها ، وأن ليس له غرض فى مصادمة آراء الحكومة ومطالبها ما دامت تتفق مع مقصده ، وعلم المجلس أيضاً أن الحكومة

لا تقصد إلى شيء وراء ما يقصده لمصلحة البلاد ، وبذلك اتفقت الكلمة فى الغالب ، ولم يَعُدْ بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يتعسَّر حله» .

وكان ما ترسله الحكومة من المشروعات يؤلف المجلسُ لجنةً لدرسه ، وكثيراً ما تكون برياسة الأستاذ ، سواء أكانت المسألة قانونية أم اجتماعية أم شرعية ، حتى قد التهمَ المجلس وقته وهو لا يعبأ بالجهد يبذل فيه ، لأنه كان يرى أن عمله مع الأعضاء درس يعلّم الجد والاهتمام بالأمور العامة للبلاد ، وأنه وسيلة لتربية الرأى العام .

هذه ناحيته السياسية الرسمية . أما غير الرسمية — وأعنى بها عمله فى موقف الأمة من الحكام — فقد لخص موقفه منهما فى قوله : « إنه يريد تنبيه الرأى العام حتى يميز ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، وأن الحاكم من البشر يخطئ ويصيب ، ولا يصده عن الخطأ إلا تيقظ الرأى العام ووقْفُه الحاكم — إذا تجاوز حدَّه — بالقول أو الفعل.

ووسيلة تنبيه الرأى العام التعليم ، وخاصةً التعليم الاجتماعى ، والصحافة النزيهة ، وتربية القادة فى مجلس الشورى وأمثاله ، فيدرسون المسائل درساً وافياً، ويبدون الرأى فى إخلاص وأمانة، فيكون هذا كله درساً يقلد عند طبقات الشعب».

هذا النحو من السياسة — وهو الاعتماد فى النضج السياسى على التعليم والتربية — برنامج عقلى لا برنامج شعورى ، وهو قلما ينجح فى الدعوة السياسية ؛ إنما ينجح فيها من يعتمد على الشعور ، وإلهاب العواطف . ولذلك نجح عبد الله نديم ومصطفى كامل سياسياً أكثر مما نجح محمد عبده .

ولعله هو قد أدرك ذلك فقال فى أمر الحكومة والمحكوم : « إنى تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبِّره» . وفى هذا القول نَغْمة يأس، وشعور بالفشل .

سببتْ له دعوته الإصلاحية الدينية ومذهبه السياسى خصومات ذوات ألوان ؛

فدعوته الدينية حركت عِداء الجامدين من رجال الدين الذين حياتهم الدينية مملوءة بالأولياء والأضرحة والنذور والموالد والشفاعة ، كما حركت عِداء قوم يرون مصدر الأحكام والفتوى ليس إلا أقوال المتأخرين من الفقهاء ، وليس لأحد كائناً من كان أن يجتهد ويقدّر الظروف والأحوال ، أو أن يرجع إلى الدين فى أصوله الأولى يستمدّ منها أحكامه . وآخرون دفعهم الحسد إلى خصومته ، إذ أخمل شأنهم ، وأبان ضعفهم ، وأظهر نقصهم ، فحاربوه باسم الدين . وآخرون غير هؤلاء وهؤلاء تألبوا عليه ، كالخديو عباس : كرهه سياسيّاً ، ولكنه حاربه دينيّاً ، فحرّض عليه بعض رجال الدين ليسقطه فى ميدان السياسة .

وهناك خصوم شرفاء أكثرهم ممن تعلم فى أوربة يرون أن الشيخ طيب القلب محبّ للخير ، ولكنه يسلك طريقاً مسدودة ، فيحاول إصلاح الأزهر وليس يصلح ، ويحاول الإصلاح الاجتماعىّ من طريق الدين ، وهم يرون الإصلاح الاجتماعىّ إنما يكون عن طريق العقل وحده ، والتقليد لأوربة فيما وصلت إليه من شرائعها ونظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؛ وهكذا كل هؤلاء تجمعوا عليه فى خصومته فى الإصلاح الدينى . ومع هذا فهذه الخصومات زادت الحركة قوة والحياة نشاطاً ، واستخرجت من الشيخ محمد عبده أقصى قواه وملكاته ، واستخرجت من خصومه أقصى قواهم وملكاتهم .

وحاربه فى السياسة الحزب الوطنىّ ، لأنه لا يرى رأى الأستاذ فى إصلاح التعليم أولا ، بل بالجلاء أولا ، ولا يرى رأيه فى الاعتماد فى السياسة على العقل ، بل بالاعتماد على الشعور ، ولا يرى رأيه فى مسالمة الإنجليز بل بمخاصمتهم العنيفة .

واشترك خصومه الدينيون والسياسيون فى تهييج الرأى العام عليه ، ومحاولتهم إسقاطه من أعين الناس ؛ هؤلاء يرمونه بالكفر الدينىّ ، وهؤلاء بالكفر السياسىّ .

ثم ذهب هذا كله ، ومات الشيخ محمد عبده ، وزالت الأحقاد وذهب الزَّبَدُ جُفَاء[1] وبَقِيَ ما ينفع الناس .

لقد أيقظ الشيخ محمد عبده الشعور الدينيّ ، وأشعر المسلمين أنهم يجب أن يهبّوا من رقدتهم لإصلاح نفوسهم وتكميل نقصهم ، وألا يعتمدوا على الفخر بماضيهم ، بل يبنوا من جديد لحاضرهم ومستقبلهم . ودعا إلى أن العقل يجب أن يحكَّم كما يحكم الدين ، فالدين عُرف بالعقل ، ولا بد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معاً حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة ، ونقتبس منها ما يفيدنا ، لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا فى عُزلة ، ولا بد أن يتسلحوا بما تسلح به غيرهم ، وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم ، وأكبر عمدة فى الأخلاق هو الدين ، ومن حسن حظ المسلمين أن دينهم يشرح صدره للعلم ويحضّ عليه ، وللعقل ويدعو إليه ، وللأخلاق الفاضلة التى تدعو إليها المدنية الحاضرة .

لقد خلف فى هذه الآراء كلها مدرسة تأخذ بتعاليمه وتعتمد على آرائه : منهم من أخذها عليه شِفَاهاً ، ومنهم — فى الأقطار الإسلامية المختلفة — من أخذها عنه بما نشره فى كتبه ومقالاته ، وكانت مدرسته هذه مدرسة قوية الأثر واضحة المعالم . وحسبنا دليلا على هذا أن أكثر من تصدّوا للإصلاح الدينى أو الاجتماعى أو السياسى بعده كانوا من تلاميذه أو من أصدقائه المتأثرين به .

وزاده قوة أثر أنه لم يكن يدعو إلى الإصلاح نظريًّا عن طريق التأليف أو الخطب والمقالات فقط كما يفعل بعض المصلحين ؛ بل كان يحاول دائماً أن يحول إصلاحه إلى عمل ، وينغمس فى الحياة الواقعية ليتمكن من تنفيذ برامجه الإصلاحية .

فإن مات وفى نفسه غُصَّة من أنه لم ينل ما يريد ، فعزاؤه أن الصالح من أفكاره لم يمت ، وظل يعمل فى موته كما كان يعمل فى حياته . رحمه الله ؟

(١) جفاء : باطلا .

خاتمة

أثرت دعوة هؤلاء المصلحين وأمثالهم فى الأمم الإسلامية ، فأعلت مستواها ورفعت من شأنها ، فكانت حالتها بعدهم ، خيراً مما كانت قبلهم .

لقد عاصر أكثرهم غَزْوَ الغرب للشرق واستيلاءه عليه ، فلما غزاه حمل معه مدنيته ، سواء منها ما كان مدنية مادية كالسكك الحديدية والآلات الصناعية والمخترعات الحديثة ، وما كان مدنية معنوية كالأفكار والعقائد والعادات ونُظُم الحكم ونحو ذلك . فأما الحضارة المادية فقد تقبلها العالم الإسلامىّ فى سهولة ويُسْر ، لظهور نفع أكثرها ورخصها ومُلاَءمتها للحياة ، ولأن الأوربيين كانوا يشجعون نشرها بكل الوسائل ، إذ كان انتشارها فى مصلحتهم أيضاً ؛ فمدُّ السكك الحديدية فى البلاد المحتلة يمكّن من سلطانهم ، ويسهل لهم طريق حكمهم ، وانتشار المخترعات يفتح السبيل لتجارتهم ورواج مصنوعاتهم وهكذا . وقد تغلغلت هذه المخترعات والأدوات والآلات فى جميع طبقات الشعب ، وغزت الكوخ الحقير كما غزت القصر الكبير ، حتى كان جِلباب الفلاح البسيط وصبغته من منتجات أوربة .

أما الحضارة المعنوية ، من أفكار وعقائد — فقد قوبلت بحذر — ولم تتفتح لها الصدور كما تفتحت للحضارة المادية ، لأنها أحياناً تصدِم العقيدة ، وأحياناً تخالف التقاليد والأفكار الموروثة . ولم تنتشر إلا فى طبقات محدودة ، هى طبقات المثقفين ثقافة أجنبية أو من كان من تلاميذهم . ومع هذا فقد تقطّر إلى الشعب منها بعض الأفكار والآراء من طريق الصحف وما إليها .

على كل حال كانت مشكلة المدنيـة الغربية وما صحبها من غزو من أعقد

المشاكل التى واجهها أكثر من ذكرنا ومن لم نذكر من المصلحين . وسلك كل منهم مسلكا يتفق ومزاجه وتربيته وعقليته ؛ فمنهم من كان يرى مسالمة الأجانب والتفاهم معهم والاجتهاد فى نشر العلوم الغربية ونظم الحكم الأجنبية وأساليب التعليم وبثها فى الشعب حتى يقوى ، فيكون أهلا للاستقلال يطالب به ، ويستطيع أن يحافظ عليه إذا هو ناله ؛ كالسيد أحمد خان فى الهند ، وخير الدين التونسى فى تونس ، وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده فى مصر . ومنهم من كان يأبى المسالمة والتفاهم مع الأجنبى بحال من الأحوال ، إذ كان يعتقد أن الحرية أولا والإصلاح الداخلىّ آخرا ، ويرى أن لا فائدة من الإصلاح الداخلى ما بقى الاحتلال ، فالمحتل مهما كان كيِّساً لبقاً لا يسمح بالإصلاح الجوهرى ، لأنه يحاربه فى الصميم من استعماره ، كما نرى فى السيد جمال الدين وعبد الله نديم .

ثم كانت المدنية الغربية نفسها وما تحوى من أفكار وآراء وآداب تحمل فى ثناياها حب الحرية ، وتبثّ فى نفوس قارئيها الشعور بحقوق الإنسان ؛ فالطبقة المثقفة ثقافة أجنبية ، سواء منها من ثقف فى الخارج أو فى الداخل ، اطلعوا فيما اطلعوا على تاريخ المدنية الأوربية وكيف جاهدت الأمم فى نيل استقلالها ، وكيف ناضلت فى الحصول على حقوقها ، ثم كيف تنعم البلاد المستقلة بحريتها وتدبير شئونها بنفسها وتوجيهها أمورها لمصلحتها ، فترجموا هذه الأفكار وهذه المشاعر إلى أممهم ، فزادت فى وَعْيهم ويقظتهم وتنبههم والمطالبة بحقوقهم ؛ ومن أجل ذلك شهد القرن التاسع عشر سقوط أكثر الممالك الإسلامية فى يد الغربيين أولا ، وسهولة حكمها واستغلالها ثانياً ، ثم اضطرابها والمناداة باستقلالها وصعوبة حكم الأجنبىّ لها ثالثا ؛ بسبب ما أسلفنا من أسباب .

وكان الجيل الجديد الذى نشأ فى عهد الاحتلال أقرب إلى قبول المدنية الغربية من آبائه ، كما كان أشد وعياً وتنبهاً ، حتى كان الفرق بين الأبناء والآباء فى القرن

التاسع عشر أوسع من الفرق الذى كان بين أهل القرن الثامن عشر والخامس عشر.

ومع هذا ظل للقديم أثره وللجديد أثره — ترى هـذا فى الملابس البلدية والملابس الأفرنجية، وفى نظم التعليم المدنية والدينية، وفى المحاكم الأهلية والشرعية، وفى الاعتقاد بالسبب والمسبّب و بناء العمل على ما أثبته العلم إلى جانب الاعتقـاد بالحظ وأعاجيب القدر.

ونشأ عن هذا اختلاف كبير فى العقليات، لا اختلاف بسيط كالذى يكون بين أفراد الصنف الواحد، ولـكنه اختلاف كبير كالذى يكون بين الأصناف المتعددة — ولا تزال هذه الخلافات الـكثيرة تصهر فى بُوتَقَة[1] واحدة. ومن عمل المصلحين إشعال النار القوية تحتها حتى يتم امتزاجها ويذهب زَبَدها، والزمن كفيل بذلك، وغيرة المصلحين وحماستهم تعمل على سرعة الوصول إلى الغاية.

ومما زاد الأمر صعوبة فى تطبيق ظواهر المدنية الغربية فى الشرق أنها نشأت بالتدريج فى الغرب، واتصلت كل الاتصـال بتاريخه وأحداثه و بيئته الطبيعية والاجتماعية، ثم جاءت إلى الشرق دفعة واحدة من غير تمهيد، ودخلت على عادات وتقاليد ومواضعات موروثة تخالفها كل المخالفة، فكانت المنازعات شديدة والصدمة قوية، وفى المدنية الغربية ما لا يتفق ومزاج الشرق وأخلاقه، وفيها ما هو ضار بالشرق وما هو نافع، وتصفية ذلك كله أمر عسير يدعو إلى طول التفكير.

ثم بدأ الوعى القومىّ للأمم الشرقيـة يتنبه فى أواخر القرن التـاسع عشر، ووُجد فى كل قطر زعماء سـياسيون يعلّمون أممهم دروس الحرية وحقهم فى حكم أنفسهم بأنفسهم، ويرسُمون لهم الخطط فى عرقلة الحـكم الأجنبىّ ووضع الصعاب فى سبيله. وجاء القرن العشرون فازدادت هذه الحركة قوة، ولـكن بدل أن يقدرها الغرب قَدْرَها، ويسـايرها بملاينتها والنزول عن بعض سلطانه لهـا،

(١) البوتقة: الوعاء يذيب الصائغ فيه المعدن.

ومساعدتها على المرانة فى حكم نفسها ، قابل القوة بالقوة والعنف بالعنف ، وواجه المطالبة بالحرية بزيادة التضييق على الحرية ؛ فازدادت كراهية الشرق للغرب ، واتسعت شُقَّة الخلف بينهما . ووجد فى هذه الآونة من يدعون إلى الإصلاح الاجتماعىّ الداخلىّ ، ولكن صوتهم كان خافتاً بجانب الزعماء السياسيين ، وقَوِيَتْ هذه الظاهرة على مَرّ الأيام ، حتى إننا لنرى فى مصر — مثلاً — أنه لم يقم مصلح اجتماعىّ بعد « قاسم أمين » على حين أن سلسلة الزعماء السياسيين لم تنقطع ، وتبع هذا أن عواطف الشعوب كانت تتجاوب وزعماء السياسة أكثر مما تتجاوب ودعاة الإصلاح الاجتماعىّ .

وتزاحمت الأمم الأوربية على استغلال الشرق ، وتدافعت المناكب ، حتى كان ذلك من أهم أسباب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فلما اشتد القتال وودّ كل فريق أن يكسب الحرب بأىّ ثمن ، بُذلت الوعود للشرق بأنه إذا بذل المعونة فى الحرب عُوِّض عن ذلك بتحقيق أمانيه ، وخطبت فى ذلك الخطب الرنانة ، وقيلت الأقوال البديعة فى حق الشعوب المستضعفة فى الحرية . ولكن ما انتهت الحرب ، وجاء دور عقد المؤتمرات ، حتى أُخلفت هذه العهود ، فبلغ الغضب من الشرق ما يبلغه من الرجل أُصيب فى شرفه وخُدع فى كرامته .

وكان من نتيجة هذا أن استمر الشرق فى نضاله ، وارتفع صوت المتشائمين الذين يسيئون الظن بأوربة ، وخفت صوت المتفائلين الذين يدعون للمصالحة — فلما جاءت الحرب الثانية مُثِّل الدور من جديد ، ولكن كان الشرق قد اشتد وعيه ، وقوى ساعده ، فنال بعض أقطاره قسطاً وافراً من حريته واستقلاله ، وبعضها قسطاً أقل ، وبعضها لم ينل شيئاً ؛ وذلك تبعاً لاختلاف حالة كل قطر فى قوته المعنوية وملابساته المحيطة به . ولكن على كل حال شجع من تقدم من تخلَّف ، ومن ظَفِر من لم يظفر .

وتكشفت الحرب العالمية الثانية عن قلق عام ساد العالم كله ، وزُلزلت المدنية الحديثة من أصولها ، وتنازعت المذاهب السياسية والاجتماعية ، واضطربت أصول الحكم ، وفقد العالم إيمانه بالنظم القديمة ، ولم يهتد إلى مايرضى عنه من نظم جديدة ، ولا يزال إلى اليوم فى غليانه .

واشترك الشرق فى هذا القلق ، وزاد على ذلك قلقه الخاص نحو مستقبله وموقفه من أوربة ، وكل هذا القلق والاضطراب فى الشرق يُعرّض لأزمات خطيرة ، ومواقف دقيقة ، يُتَلَمّسُ معها القادة الذين يوجهونه نحو الطريق الآمن ، والهداة الذين يرشدونه لبلوغ الغاية .

ولم تكن مشاكل الشرق الاجتماعيــة بأقل تعقيداً من مشاكله السياســية . فقد كان الشرق يعيش على أساليبه القديمة الزراعية والصناعية والتجارية ، يزرع كما يزرع آباؤه الأولون زراعة مؤسسة على التقاليد الموروثة ، لا على نظريات العلم المدروســة ، تُستخدم فيها الآلات التى استُخدمت منذ فجر التــاريخ . وكانت الصناعات ساذجة بسيطة ، وما أتقن منها كان قليلاً جداً ، يتخذه الأغنياء والمترفون تحفة من التحف ، أو طرفة من الطرف ؛ والتجارة كانت على عهدها القديم فى أســاليب المعاملات والأخذ والعطاء . فجاءت المدنية الغربيــة وقلبت هذه الأوضــاع كلها ، فالزراعة أسست على العلم واســتخدم فيها آلات جديدة ، والصناعة التى كانت تعتمد على سواعد الإنسان وقوة الحيوان اعتمدت على البخار والكهرباء ، وأنتجت فى اليوم ما كانت تنتجه فى ســنين ، وتوالت المخترعات فى كل باب من أبواب الصناعة فأكثرت الإنتاج ، وأرخصت الأثمــان ، وبذلك اســتطاعت الصــناعة الأوربية أن تغزو الصــناعات الشرقيــة وتفتحها كما فتحت الآلات الحربية البلاد الشرقية . وكذلك الشأن فى التجارة ، أصبحت لها أساليب جديدة ، وأصبحت تقوم على الشركات أكثر مما تقوم على الأفراد ،

وعلى رءوس الأموال الضخمة لا على رءوس الأموال الفردية القليلة ، واخترعت أساليب للمعاملات جديدة تسهل عمليات الأخذ والعطاء . وهذه أيضاً وردت على الشرق مع الغزاة الفاتحين . هذا إلى أن القائمين بالتجارة فى الشرق من الأوربيين كانوا أوسع علماً وأكثر خبرة وأرق عقلاً ، فنجحوا فى تجارتهم حيث لم يبق للتجار المواطنين إلا فتات الموائد .

وأخيراً تنبه وعى الشرق من هذه النواحى كما تنبه وعيهم السياسى ، فأخذوا يستغلون الآلات الزراعية الجديدة ، وإن كان ذلك فى حدود ضيقة ، وأخذوا يفهمون عظمة الصناعة الأوربية وقوتها ، ويقلدونها ويحاكونها ، وأدركوا أن الاعتماد على الزراعة وحدها لا يكفى لحياة الأمم ، فبدأ كثير من الأمم الشرقية يؤسس الصناعة بجانب الزراعة ، ويستخدم الآلات الصناعية الأوربية ويستغلها ، ويفرض الضرائب على ما يأتى من الخارج لحماية الصناعة فى الداخل . وكذلك الشأن فى التجارة والمعاملات المالية ، فقد فهم الشرق طرق الغرب فى التجارة وأساليبها ، وأخذ يكوّن الشركات وينشئ المصارف ويتعامل بعضهم مع الأوربىّ معاملة الندّ للندّ . ورقىّ الصناعة والتجارة والتوسع فيهما يخلّق أهل البلاد — عادةً — بأخلاق غير الأخلاق الزراعية ، إذ يجعلهم أقدر على تحقيق مطالبهم ، بحكم سهولة اجتماعهم ، وبحكم سهولة احتكاكهم بأمثالهم من الغربيين . وساعد على التقدم فى هذا الباب أن كان الباعث عليه شعور الناس أن ليس يمكن الاستقلال السياسى إلا بالاستقلال الاقتصادىّ ، ولكن لما يزل المدى بعيداً أمام تحقيق الغاية من ذلك ، فالزراعة لم يتم تأسيسها على العلم ، والصناعة لم يتم بناؤها على النظام والسرعة والإتقان ، والشئون المالية لم تفهم حق الفهم ، ولم تستخدم حق الاستخدام ؛ وهذا ما يجعلنا ننتظر النابغين من المصلحين فى هذا الباب .

ثم إن الشرق على العموم يعيش منذ القرن التاسع عشر على أساسين

متباينين : قديم ورثه من آبائه الأولين ، وجديد أخذه عن حضارة الأوربيين . يظهر ذلك فى ملبسه ومسكنه وشارعه وجمعياته وأنديته وأفكاره . وهذان العنصران يتفاعلان تفاعلاً غريباً ، ويتصادمان أحياناً تصادماً عنيفاً ، فترى الرجل يلبس اللباس الشرقىّ من عمامة وقباء أو طربوش وجلباب، ويتحدث فى التليفون المصنوع فى إنجلترا ، ويحمل ساعة مصنوعة فى سويسرة ، وفى البيت سَجّادة عجمية وحصير بلدى وراديو أمريكى ، وفى المجلس الواحد حديث عن قوة السحر والتعاويذ وحديث عن نظرية دارون فى النشوء والارتقاء ونظرية أينشتين فى النسبية . وفى الناس من يمجّد كل قديم ويكره كل جديد ، ومنهم من يمجّد كل جديد ويكره كل قديم ، وهكذا وهكذا . والعنصران يعملان فى كل أمة شرقية ، وإن اختلف مقدار كل عنصر فى طبقاتها المختلفة ، فالطبقة الفقيرة يتجلى فيها عنصر القديم ، والطبقة الغنية على العكس من ذلك . هذا فى الماديات. والطبقة المتعلمة على النمط الحديث أكثر تأثراً بالعنصر الجديد فى الأفكار والآراء ، على العكس من الطبقة الجاهلة أو المتعلمة على النمط القديم ، وهذان العنصران يمتزجان امتزاجا غريباً، ويترتب على امتزاجهما والأخذ بهما محاسن ومساوىء ومزايا ومضار، ففى القديم خير وشر ، وفى الجديد خير وشر ، فإلى أى حد ينتفع بخير القديم ويُتجنب شرّه ، وإلى أى حد ينتفع بخير الجديد ويتجنب شره ؟ هذا أيضاً ما شغل المصلحين .

والمرأة ، كانت قبل القرن التاسع عشر فى الشرق جاهلة محجَّبة ، تُربَّى داخل البيوت تربية منزلية ، ولا تعرف شيئاً مما وراء البيت ؛ ضيقة العقل ، محصورة الأفق . وهى هى التى يُعهد إليها فى تربية الجيل ، فلما جاءت المدنية الغربية إلى الشرق أخذ عنها تعليم البنت وتربيتها وتهذيبها وفتح المدارس لها . فكان هذا تطوراً اجتماعياً خطيراً ، إذ أخذت المرأة تطالب بحريتها وحقوقها ، وأخذت تنال ذلك

شيئاً فشيئاً . ولكن نشأ عن ذلك ما هو طبيعيّ ، وهو أن من نال الحرية بعد فِقدَانها لم يحسن استعمالها أول عهده بها ، حتى يَمْرَنَ عليها ويكتوى بنارها ، فيعرف بعدُ كيف يحسن استعمالها ؛ ووُجد لذلك مصلحون أمثال قاسم أمين فى مصر ، والسيد أمير على فى الهند ، يطالبون للمرأة بحريتها ، كما وجد بعد ذلك من ينقُدها فى طريقة استخدامها لحريتها . والمرأة سائرة إلى الأمام ، وهى كل يوم تفتح باباً جديداً ، من سُفور ، إلى تعلم ، إلى مطالبة بتشريع ، إلى مزاحمة للرجل فى الأعمال ، إلى طلب مساواة للرجل فى جميع الشئون ، فنشأت عن كل ذلك مشاكل احتاجت وستحتاج إلى مصلحين ومصلحات .

ومع مشكلة المرأة مشكلة الأسرة ، فقد كانت من قبل تسير على « النظام الأبوىّ » فكل سلطة فيها للأب ، وأفراد الأسرة يأتمرون بأمره ، ويخضعون لإرادته ، وهو المسيِّر لشئونها المالية والاقتصادية والاجتماعية . فلما دخلت المدنية الغربية الشرق حملت معها حرية الأسرة ، فسفَرت المرأة وأدركت أنها شريكة الرجل فى إدارة البيت ، لها الحقّ فى الإشراف على دَخْل الرجل ووجوه إنفاقه ، ولها إبداء الرأى فيما يعمل وما لا يعمل ، وفى غِشْيان دور السينما والتمثيل . وفهم الأبناء والبنات حقهم فى إبداء الرأى ومناقشة الأب ؛ واصطدم النظام الأبوىّ القديم فى الأسرة بالنظام البرلمانى الجديد ، ولم ينزل الأب عن سلطانه فى يسر وسهولة ، ولم تسر الأم والأبناء على النظام الجديد فى رِفق وهوادة ، فارتجت الأسرة بعد ثباتها ، وكثرت أحداثها ومتاعبها ، وطالبت المرأة الجديدة بالتشريع الجديد فى تحديد سن الزواج وتقييد حرية الرجل فى الطلاق ، وتعدّد الزوجات ؛ وقد أجيبت إلى بعض مطالبها ، ولما تزلْ تلحُّ فى الباقى .

وعلى الجملة فقد أصبحتْ للأُسَر مشاكل عويصة كما لكلِّ مَرْفِقٍ من مرافق الحياة .

ثم مشكلة التعليم ، فقد كان التعليم عندنا سائراً على النمط القديم فيما يُعلَّم وكيف يُعلَّم ، فأخذنا بعض الأساليب الحديثة فى التعليم كالذى رأينا فى سيرة على باشا مبارك فى مصر والسيد أحمد خان فى الهند ، وخطا الشرق خطوات موفقة فى ذلك ، ولكن لم يَحُلّ كل مشاكل التعليم ولا أكثرها ، فلا تزال الأمية فاشية ، ولا تزال الثقافة الشعبية ضـــعيفة ، وما اخترع من أساليب جديدة فى التربية الأوربية لم يطبّق التطبيق الكافى المفيد الواسع ، ولا يزال ما يجرى من إحصاء للأميين والمتعلمين والمثقفين وغير المثقفين ، ومن تثقفوا ثقافة عالية ومن لم يتثقفوا هذه الثقافة ، يبعث على الألم ويدعو إلى الإصلاح .

ولعل من أهم المشاكل التى تواجه العالم العربى الآن استخدامه لغتين : عامية وفصيحة ، والفرق بينهما كبير ، يَســـتعمل إحداهما فى البيت وفى الشارع وفى المجالس ، ويستعمل الأخرى فى الكتابة والقراءة ، ولم تنجح أية محاولة فى التقريب بينهما ، وهذا أضعَفَ من اللغة الفصحى لأنها لم تكتسب الحيوية التى تأتى من طريق الاستعمال اليومي ، وأضعف اللغة العامية لأنها لم تستفد مما ينتجه الأدباء والشعراء ؛ ولا تزال المشكلة عويصة تتطلب الحل من المصلحين .

ثم الفقر ، وهو مشكلة المشاكل ، فالسواد الأعظم من الشعوب الشرقية فقير لا يكاد يجد ما يُمسِكُ رَمَقه[1] . مسكنه ضيق مظلم ، وملبسه قَذِر مهلهل ، وفقره يستتبع سوء حالته الصحية وحالته التهذيبية ، فالفقر والجهل والمرض عوامل متفاعلة متشابكة يؤثر كل عامل منها فى الآخرَين — والفروق بين طبقات الشعب الواحد فى الشرق أكبر منها فى الغرب . وقد كانت الحال تجرى هادئة مطمئنة يوم كان الفلاح الفقير والعامل البسيط يستسلم للقدر ، ويوم كان يلطّف من الفقر إحسان المحسنين ، ويوم كانت مطالب الحياة قليلة وأسعار السلع رخيصة . ولكن تعقدت

---

(١) الرمق : بقية الحياة .

الحياة وكثرت مطالبها ، وعُدّ كثير من الأشياء ضروريًا بعد أن كان يعدّ كماليًا ؛ وانتقلت أخبار الصناع والعمال فى أوربة وما يُعمَل لرفاهيتهم إلى الشرق ، فدبّ فى فلاّحه وصانعه الوعى بأنه يجب أن يعيش عيشة معقولة مقبولة ، فتألم — وزاد فى وعيه ما يواجه من غلاء الأسعار الذى لا يتفق ودخله ، فنشأ عن هذا كله ضرب من القلق والتذمر . وقد أخذت الحكومات تبحث أسباب الفقر وعلاجه وتعمل لإنقاذ الفقراء من فلاحين وصناع ، ولكن لم تصل فى ذلك إلى الغاية المنشودة ، ولا تزال المشكلة تنتظر العلاج .

وبعد الحرب العالمية الأولى نشطت فى الغرب نظريات سياسية كبرى كالنازية والشيوعية والديمقراطية والاشتراكية ، وكان لكل منها برامج سياسية واجتماعية واقتصادية ، وبعضها يعادى بعضاً أشد العداء وأعنفه ، وتسابق كل فى الدعاية لمذهبه ، والتشهير بخصومه ، واشتدت هذه الدعاية فى الحرب العالمية الثانية ، وتفاءل المتفائلون بِسَلْم ينعم فيها الناس بالطمأنينة والاستقرار ، ولكن خاب فألهم ، فاشتد النزاع بعد الحرب واحتدّت الخصومات ، وتجاوبت النظريات ، وقويت الدعايات ؛ وانتقل كل هذا من الغرب إلى الشرق فبلبل أفكاره ، وروّع قادته ، وجعلهم يتساءلون : إلى أين المصير ، وكيف المخرج من هذه المآزق ، وكيف تهدأ الأفكار وتطمئن النفوس ؟

وكان طابع القرن التاسعَ عشرَ فى الغرب طابعاً ماديًا بحتاً ، فهو لا يؤمن إلا بالمادة ، والعلم عنده هو العلم بالمادة ؛ وما ليس ماديًا يخضع لأساليب البحث العلمى ليس إلا وهماً . ونتيجة هذا أن القِيَمَ الأخلاقية والدينية والفنية فى نظرهم ليست إلا أموراً اعتبارية لا حقيقة لها ، وقدِّس علم الطبيعة والكيمياء ، وتحول علم النفس إلى المادية ، فكل مظهر من مظاهر النفس — من أفكار وبواعث — ليس إلا نتيجة لمادة الجسم ، وفُسِّر الكون كله وأحداثه تفسيراً

ماديًا — فلما أتت هـذه الأفـكار إلى الشرق — وهو المعتزّ بدينه الفخور بروحانيته — غَضب منها وغضب ممن اعتنقها ؛ وجاء بعض المصلحين كالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده يبين مزايا الدين ، و يردّ على الملحدين ؛ فـكانت من ذلك حركة عنيفة بين المؤمنين والجاحدين . وأخيراً جاء القرن العشرون وتقدمت البحوث العلمية فى المادة وتكوينها ، فتبين لـكثير من العلماء أن المـادة وحدها تَعْجِز عن تفسير الـكون تفسيراً صحيحاً يركن إليه ، فعادوا إلى الروحانية والقول بالدين ، وظهرت موجة الإيمان بعد موجة الإلحاد . وكان الشرق دائماً يتأثر بما يظهر فى الغرب . ومهما كان فى الغرب فالشرق مهد الأديان ، يؤمن بها و يركَن إليها ، و يرى أنها سَنَده فى حياته ، وأمله بعد مماته . وهو مع ذلك يرى أن الدين الصحيح لا يحارب العلم ولا يقف فى سبيله ، فلـكل مجاله ، ولـكل مزاياه . ولـكن ما هى حدود العلم وما هى حدود الدين ؟ ثم إن الدين يدخل عليه على توالى الأيام بعض الأوهام ، و ينـدس بين عقائده ما يتناقض مع أصوله ، فـكيف ينقّى هذا و يصفّى ؟ كل هذا أيضاً عمل القادة المصلحين .

.. هـذا عرض سريع لما يَعْرِض الآن للشرق من مشاكل ، وقد علمتنا الأيام أن الحياة تتجدد ، ومشاكلها تتجدد ، وكلما تركّبت الحياة واتسعت المدنية والحضارة زادت مطالب الناس وتعقدت مشاكلهم . والأمة الموفقة هى التى رُزِقَتْ بمصلحين ينيرون لهـا السبيل فى الليالى الظلمـاء ، ويوجهونها خـير الجهات عند ما تقف حَيْرَى فى مفترَقِ الطرق ، فيقفون من أمتهم موقف الملاح الماهر ، فى الرياح العاصفة ، والأمواج المتلاطمة ، حتى تصـل إلى برّ السلامة .

وعمل المصلح من أشق الأعمال وأصعبها ، فهو يحتاج فيما يعالجه من إصلاح إلى درس دقيق ، وتفـكير عميق ، حتى يحيط بالمشكلة التى يواجهها جملة وتفصيلا ،

ثم يضع خُطة الإصلاح فى إتقان و إحكام على ضوء ما درس ، ثم يُعِدُّ الرأى العامَّ ليستجيب لدعوته و يتحمس لمطلبه .

هو — عادة — يلقى العقبات فى طريقه ، والأشواك يُشَاك بها أثناء سيره ؛ لأنه بإصلاحه — يدعو إلى نوع من التجديد، والناس — فى الأعمّ الأغلب — عبيدُ ما ألفوا ، فإذا دُعوا إلى جديد لم يألفوه خاصموه وحاربوه ؛ فإذا ألح المصلح فى دعوته : ألحوا فى خصومتهم . وكثيراً ما تنتقل الخصومة إلى إيذاء ، فيتهم فى عقله وفى أمانته وفى شرفه ، وقد قال وَرَقة بن نَوْفَل لمحمد صلى الله عليه وسلم حين عَرَض عليه دعوته : « ما جاء أحد بمثل ما جِئْتَ به إلا أُوذِى » وقد رأينا فيما عرضنا من المصلحين فى هذا الكتاب أنواع ما أصابهم من الأذى ، فمنهم من نُفِى ومنهم من سُجن ومنهم من قُتل ؛ ولكن لا يكون المصلح مصلحاً حقًّا حتى يؤمنَ الإيمان العميق بدعوته ، وحتى تكون مبادئه أحب إليه من نفسه ، فيصبر على الأذى ، و يتحمل العذاب فى ثبات ، حتى تنتشر دعوته وتتحقق مبادئه .

وكما أن لكل جيل مشاكلَه التى تنجُم من نوع حياته ، فلكل جيل مصلحوه الذين يتناسبون وزمانه ؛ فلا بد أن يكون المصلح عارفاً لأمته ، مطلعاً على خفاياها ، واقفاً على أسرار نفسيتها ، خبيراً بطرق توجيهها ، يعرف كيف يخاطبها بلغتها ، وكيف يتملَّك زمامها ، وكيف يكون موضع تقديرها وإجلالها . ولا يكون ذلك حتى يكمل نفسه و يسبق قومه — وقد زرع المصلحون مِنْ سَلَفِنا فحَصَدْنا ، فليزرع شبابُنا لمن يأتى بعدَهم ليحصُدوا ، جزاء وِفاقاً . م ؟